مجموعة مؤلفين

كمال الصليبي: الإنسان والمؤرّخ (١٩٢٩-٢٠١١)



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذا الكتاب

على الرغم من صعوبة الإحاطة بكلّ ما أنتج كمال الصليبي على مدى أكثر من نصف قرن من التعليم والبحث والكتابة. يحاول هذا الكتاب الإضاءة على بعض الجوانب المهمة من عطاء الصليبي، من خلال دراسات شارك في كتابتها أساتذة من مدارس ومشارب فكرية مختلفة، فتناول كل منهم أحد الحقول التاريخية التي كتب فيها الصليبي، من دون تنسيق مسبق لكيفية مقاربتهم أعماله، لكن على الرغم من تنوّعها، تُجمع هذه الدراسات على أمور ثلاثة: أوّلها ريادة الصليبي في دراساته التي تحث على إعادة التفكير في القضايا التاريخيّة وعدم القبول بالمسلّمات الموروثة، وهذا ما يظهر في الدراسات كلها الممتدّة من العهد القديم إلى التاريخ الحديث للأردن ولبنان؛ وثانيها هي شدّة اهتمام الصليبي بالجيوتاريخية، إذ ينطلق فهمه للتاريخ من معرفته العميقة بالجغرافيا وأثرها في المسار التاريخي للمناطق التي درسها، وينعكس هذا أيضًا جليًا في بحوثه كلها التي تُغطي الفترة الممتدة من العهد القديم إلى الحديث؛ والإجماع الثالث هو أنّ معالجة الصليبي للتاريخ تستند إلى الفهم المعمَق للإطار والتاريخ المحليّين، وتفاعل المستوى المحلي مع المستوى المناطقي أو الإقليمي في الإطار الدولتي الواسع.

المؤلفون المساهمون

عبد الرحيم أبو حسين	الياس القطار
وجيه كوثراني	ناديا الشيخ
مايكل بروفنس	عبد الرحمن شمس الدين

السعر: 6 دولارات

ISBN 978-614-445-089-5

9 786144 450895

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

كمال الصليبي: الإنسان والمؤرّخ
(2011-1929)

كمال الصليبي: الإنسان والمؤرّخ
(1929-2011)

عبد الرحيم أبو حسين — الياس القطار
وجيه كوثراني — ناديا الشيخ
مايكل بروفنس — عبد الرحمن شمس الدين

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

كمال الصليبي: الإنسان والمؤرخ (1929-2011)/ عبد الرحيم أبو حسين ... [وآخ.].

152 ص. ؛ 24 سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-089-5

1. الصليبي، كمال س. (كمال سليمان)، 1929-2011. 2. المؤرخون العرب - القرن 20. 3. التأريخ. 4.الجزيرة العربية في التوراة. 5. التوراة - جغرافيا. 6. لبنان - تاريخ. أ. أبو حسين، عبد الرحيم.

907.202

العنوان بالإنكليزية

Kamal Salibi, the Human and the Historian (1929-2011)

by Multiple Authors

الناشر

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر
هاتف: 44199777 00974 فاكس: 44831651 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute. org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، نيسان/ أبريل 2016

المحتويات

موجز الكتاب

تصعب الإحاطة بما أنتجه كمال الصليبي في أكثر من نصف قرن من التعليم والبحث والكتابة، وهو من نذر حياته لهذه الرسائل الثلاث. يحاول هذا الكتاب الإضاءة على جوانب مهمة من عطاء الصليبي، من خلال دراسات شارك في كتابتها أساتذة من مدارس ومشارب فكرية مختلفة، فتناول كل منهم أحد الحقول التاريخية التي كتب فيها الصليبي، من دون تنسيق مسبق لكيفية مقاربتهم أعماله.

على الرغم من تنوّع المقاربات والحقول التاريخيّة، تُجمِع الدراسات المدرجة في هذا الكتاب على أمور ثلاثة: **أوّلها** ريادة الصليبي في دراساته التي تحث على إعادة التفكير في القضايا التاريخيّة، وعدم القبول بالمسلمات الموروثة، وهذا ما يظهر في الدراسات كلها الممتدّة من العهد القديم إلى التاريخ الحديث للأردن ولبنان؛ **وثانيها** شدّة اهتمام الصليبي بالجيو-تاريخية، إذ إن فهمه التاريخ ينطلق من معرفته العميقة بالجغرافيا وأثرها في المسار التاريخي للمناطق التي درسها. وهذا أيضًا ينعكس جليًا في بحوثه التي تغطي الفترة الممتدة من العهد القديم إلى الحديث؛ **وثالثها** إستناد معالجة الصليبي للتاريخ إلى الفهم المعمَق للإطار والتاريخ المحليّين، وتفاعل المستوى المحلي مع المستوى المناطقي أو الإقليمي في الإطار الدولتي الواسع.

تتناول دراسة عبد الرحمن شمس الدين «جغرافية التوراة ونظرية الصليبي: مقاربة تمهيدية من منظور عربي - إسلامي: مسألة العماليق مثالًا» (الفصل السادس) موضوع الأصالة، حيث يرى شمس الدين أن كمال الصليبي قدم في

التوراة جاءت من جزيرة العرب نظرية أصيلة في موضوع جغرافيا التوراة ومكان الحوادث التوراتية بالنسبة إلى تاريخ شعب إسرائيل القديم؛ إذ انطلق الصليبي من أن الحوادث التاريخية المذكورة في التوراة وقعت في جغرافيا تختلف عن الاعتقاد السائد، بغض النظر عن صحة هذه الحوادث من وجهة نظر تاريخية علمية. وتوصل إلى نتيجة مفادها أن الجغرافيا التوراتية لم تحدث في أرض فلسطين، بل في شبه الجزيرة العربية، حيث تتوافق خريطة الجزيرة مع الخريطة التوراتية الحقيقية المبنية على فهم أكثر دقة للأصل العبري. وفي هذا البحث، ينطلق شمس الدين من عمل الصليبي محاولًا تقديم بعض المعطيات التي وقع عليها في التراث العربي، والتي تتوافق مع رؤية الصليبي نفسه، على الأقل في أن المسرح الجغرافي لحوادث التوراة الأولى هو شبه الجزيرة العربية.

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا العمل لم يُبن على دراسات جغرافية أو توراتية، وإنما على ما يقدمه التراث العربي من معطيات تساهم في إثراء بحث هذا الموضوع. لذلك، تركز البحث على أحد الشعوب التوراتية المهمة، وهو شعب العماليق الذي يُعتبر في الفكر العربي قبيلة عربية بائدة!

الملاحظ أن كثيرًا من الصور التي يقدمها التوراة عن شعب العماليق هذا تتشابه مع الصور التي يقدمها التراث العربي عن قبيلة العماليق العربية البائدة، مع اختلاف ملحوظ في الأماكن الجغرافية. يسلّط هذا التشابه الضوء على طرح الصليبي، حيث تتوه الجغرافيا التوراتية في تحديد مواطن العماليق، بينما يظهر التراث العربي عماليقه بوضوح على أنهم عرب عاربة من القبائل البائدة، لا بل إن أوّل من تكلم العربية هو «عمليق»!

تتناول ناديا ماريا الشيخ في دراستها «كمال الصليبي في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى» (الفصل الخامس)، بحوث الصليبي في التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، وتركّز على مؤلفاته عن بلاد الشام في ظل الحكم الإسلامي، وجزيرة العرب ولبنان في العصر الوسيط. وتبين الشيخ في هذه الدراسة أن الصليبي قدّم فهمًا بديلًا مما هو سائد في تاريخ هذه المناطق كلها، بتشديده على الأهمية المركزية للجغرافيا وطرق التجارة، وبإدراكه أهمية تحليل المحلي والإقليمي

والدولتي جنبًا إلى جنب. وبينما يمثل وعيه بالأهمية الأساسية للجغرافيا أحد أبرز مساهماته، فلا بد من القول إن نتاجه في شأن التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط يتميّز بأنه قدم تحديًا للتحقيب التقليدي الشائع في الدراسات العربية والإسلامية. فعمله في الأساس يُعيد النظر ويسائل ما استقر عليه التاريخ من نماذج وحقب، ويقدم مقاربات جديدة ونمطًا جديدًا من التحليل.

أما في ما يتعلّق بتاريخ لبنان، فيرى الياس القطار في دراسته «كمال الصليبي: رائد الدراسة العلمية الوضعية لتاريخ لبنان الوسيط» (الفصل الرابع) أن دراسة لبنان الوسيط كانت في الأغلب جزءًا من الدراسة العامة لتاريخ لبنان، فلم تستحوذ على الاهتمام اللائق بها، شأنها في ذلك شأن دراسة لبنان في حقبتي التاريخ القديم والتاريخ المعاصر. ومنذ أطروحته في أواسط القرن الماضي عن المصادر التأريخية المارونية (ابن القلاعي والدويهي والشدياق)، عمل الصليبي على صوغ معطيات تاريخ لبنان الوسيط بصورة علمية أكاديمية نقدية تحليلية، تربط الرواية المارونية بالمصادر العائدة إلى زمن الحدث، وتصحح ما فيها من مبالغات وشوائب ونواقص ومغالطات في التواريخ والأسماء والوقائع وخلط بالأساطير، وتعتمد إلى حدّ بعيد منهجية المدرسة الوضعية.

تركز هذه الدراسة على المحور الماروني، فحسب، في كتابات الصليبي، وتحاول استقراء أصول هذا التاريخ. كما تشير إلى جديد الصليبي في حقل استعلام التاريخ اللبناني الوسيط وموقعه في الواقع الحالي، لدراسة هذه الحقبة.

يستنتج الصليبي أن التأريخ الماروني كان في الأساس فخرًا بالذات لطائفة صغيرة مغلقة على ذاتها ومحاطة بالأعداء، حافظت مئات السنين على جبالها حيث تعيش بحرية نسبية، وتعيش في حال دفاع دائم ضد تهمة «الهرطقة المونوتيلية» التي اتهمت بها، وضد التبشير «اليعقوبي». تؤكد هذه الجماعة وحدتها بروما منذ البدايات، وأول من حمل لواء الدفاع عن هذه الوحدة كان ابن القلاعي الذي يعتبر أوّل ماروني يدرس في روما. لذلك دوّن «مديحة على جبل لبنان»، تغالي باستقلالية الموارنة في ظل الفرنج والمماليك، ويصعب فيها تمييز أبطال الموارنة من قادتهم وقادة الفرنج، وكانت «التبكيت» زجليته الثانية، إضافة

إلى رسالة زجلية رفعها إلى البطريرك شمعون، وغيرها من الزجليات التي كتب معظمها بلغة عربية ركيكة يبدو فيها أثر تركيب الجمل السرياني، وبلهجة محلية أراد منها تمكين الموارنة من عقيدتهم وتمتين ارتباطهم بالبابوية في روما.

يستهلّ مايكل بروفنس دراسته «كمال الصليبي ومؤرّخو المشرق العربي» (الفصل الثالث) بالقول إن الصليبي يقدم المثال الأبرز لجيل من المؤرخين تلقوا تعليمهم على الأغلب في بيروت، وشبّوا بين نهاية الانتداب وعقد الستينيات من القرن الماضي. ومثل الصليبي، يمّم كثير منهم شطر الغرب لمتابعة دراساته العليا، إلا أن الإقامة في أوروبا وأميركا الشمالية والدراسة فيهما لم تضعفا عندهم وضوح الرؤية والمشاركة الوجدانية والفهم العميق لتاريخ البلدان التي جاءوا منها.

كان الصليبي الممثل الأبرز لما يمكن اعتباره مدرسة الجامعة الأميركيّة في البحث التاريخي في الشرق الأوسط الحديث. كما كان، حاله حال معلّميه وزملائه، يصرّ بهدوء - لكن بتصميم - على دراسة المنطقة وشعوبها والتغيّرات التي طرأت عليها عبر الأزمنة بشروطهم ورؤاهم وأطرهم الخاصّة، كما يدرس مؤرخو بلدان وأزمان أخرى موضوعاتهم. تمثّل مساهمتهم الجماعية نتاجًا بحثيًا لا يثمّن، يتميّز بالتفصيل والدقّة، ويصل الخبرة المعاشة في الدولة العثمانية وفترة الانتداب بتطلعات بداية الاستقلال، ويحقّق ذلك بتجرد تأريخي رفيع. وفي هذا، إلى جانب أمور كثيرة أخرى، كان الصليبي على الدوام سبّاقًا ورائدًا.

اشتهر كمال الصليبي بوصفه مؤلفًا لعدد كبير من الكتب، ومن أهمها بحثه البارع، في التأريخ اللبناني الحديث وأساطيره القومية، الموسوم بـ بيت بمنازل كثيرة. لكن الصليبي كتب أيضًا عشرات الدراسات خلال عمله الأكاديمي الطويل، وكان فخورًا بهذه المساهمات. يختبئ كثير من هذه الدراسات في مجلدات، تضم بحوثًا ألقيت في مؤتمرات علمية، نفذت طبعاتها. وكبيرة تكون مكافئة الباحث الذي يقيَّض له أن يجد أحد هذه، صدفة أو قصدًا، وأكثرها دفين رفوف المكتبات.

يتناول وجيه كوثراني في بحثه «كمال الصليبي في تأريخه للبنان الحديث ولصورة الأمير المعني: من لبنان - الملجأ إلى لبنان - المأزق» (الفصل الثاني) تغير نظرة الصليبي المؤرخ في شأن مسألة الإمارة اللبنانية وموقع الأمير فخر الدين

المعني في الرواية اللبنانية التقليدية، علاوة على الأساطير الصغرى التي نشأت لتدعيم هذه الرواية، وكيفية انتقال الصليبي من التسليم بهذه الرواية والأساطير الصغرى إلى نفيها وتبيان زيفها. ويرى كوثراني أن الصليبي يعتمد في بحثه التاريخي المتعلق بلبنان على المصادر الوثائقية ومقارنة بعضها ببعض، معتمدًا على نقدٍ خارجي وداخلي. وهو بهذا يتبع المنهج الوضعي/ الإمبريقي (التجريبي)، لا المفاهيم والأطر النظرية العامة التي جاءت بها العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، وهو بذلك يأتي إلى اكتشاف حقيقة الإمارة اللبنانية متأخرًا. كما يتعرض كوثراني في الجزء الثاني من بحثه إلى كتاب الصليبي بيت بمنازل كثيرة، وبعض فصول هذا الكتاب بشكل خاص، حيث ينتقد الصليبي صورة الإمارة في الروايات التاريخية التقليدية، من نظرية هنري لامنس عن جبل لبنان – الملجأ إلى الإمارة في العهد العثماني، فنظرية لبنان الفينيقي ودحضها. وهو يعرض كذلك المحاولات الطائفية في فرض رؤيتها لتاريخ لبنان التي انتهت جميعها إلى الفشل. وانطلاقًا ممّا سبق، يقدّم الصليبي رؤيته في كيفية النظر إلى تاريخ لبنان، داعيًا اللبنانيين إلى «حملة تنظيف عامة في بيوت العناكب»، ويقصد بذلك الرؤى التاريخية المختلفة للطوائف وضرورة التصالح مع حقائق تاريخها كما هي.

يأخذ كوثراني على الصليبي إغفاله البعد السياسي في وصول اللبنانيين إلى فهم مشوّه لتاريخهم. والمطلوب في نظر كوثراني يتعدى مسألة «تنظيف» (أي تصحيح) التاريخ إلى «تنظيف» (تصحيح) السياسات لبناء الدولة الوطن والمواطن. فسياسات الحاضر هي التي ستنتج أو تعوّق إنتاج بيئة علمية تعيد النظر في التاريخ وتنزع عنه النظرة الطائفية، وإذ ذاك تنتفي الحاجة إلى أسطرة التاريخ أو تزويره خدمة لمشروع سياسي ما.

يقدم عبد الرحيم أبو حسين في دراسته «كمال الصليبي: سيرة إنسان ومؤرخ» (الفصل الأول) لمحة عن جانبين متلازمين في شخصية الصليبي؛ إذ إنه (أبو حسين) تتلمذ على يديه وصادقه وزامله طويلًا. يستعيد أبو حسين هنا بعض الحوادث الدالة على شخصية الصليبي، وينتقل إلى الحديث عن مساهماته في حقل التاريخ اللبناني، التي يضعها في المجالات الآتية: الدراسات التأريخية والتاريخ السياسي أو التقليدي والأعمال النقدية.

في المجال الأول، كان الصليبي سبّاقًا في إخضاع مصادر التاريخ اللبناني، المؤثرة كثيرًا في الكتابة التاريخية إلى اليوم، للنقد. ذلك أنّها، ولا سيما المارونية منها، اعتذارية في معظمها. ويرى الكاتب في المجال الثاني أن من أهم ما ميّز كتابة الصليبي التاريخية انطلاقه فيها من منظور لبناني، وهذا ما أضفى عليها صبغة التاريخ المحليّ. يضاف إلى ذلك اهتمامه الفائق بالإطار الجغرافي للتاريخ، حتى محليًا. ويلحظ أبو حسين افتتان الصليبي الشديد التفصيلات والمسائل الغامضة التي تبرز نتيجة البحث، وهذا ما قاده إلى بحثه «الثوري» أو «المهرطق» من وجهة نظر الرواية التاريخية اللبنانية والقائلين بها، المعنوَن بـ«سر البيت المعنيّ».

أخيرًا، يميل الصليبي إلى الكتابة عن فترات زمنية منفصلة وفي حدود جغرافية ومفاهيمية محدّدة، بدلًا من كتابة تاريخ عام للبنان. لذا جاءت أحكامه أكثر حسمًا، وخلت عمومًا من هشاشة المفارقات التاريخية التي غالبًا ما ترافق المزج بين فترات زمنية متمايزة داخل مساحة جغرافية واحدة.

سئل ذو النون يومًا عن دعائم الحكمة فقال: «العقل والعلم والمعرفة والأدب»، فقيل له: «فما الذي يحوطها»، فأجاب: «الإخلاص والتواضع»[1]. وكلّ من عرف كمال الصليبي يشهد بأنّه أفنى حياته في طلب العلم وخدمة أهله حتى لحظته الأخيرة. وكان شديد التواضع على الرغم من مكانته المشهود له بها. وهذا ما حاول زرعه كمال الصليبي في نفوس مريديه وطلابه، فكان إرثه الأخلاقيّ. لكن ماذا يتبقّى من إرث الصليبي المعرفي؟ هذا هو السؤال الذي تحاول أن تجيب عنه دراسات هذا الكتاب مجموعةً.

كان كمال الصليبي، شيخ مؤرّخي العرب في القرن العشرين، مثال العالم المعلّم، وخير تحيّة له في ذكرى غيابه إحياءُ تراثه، ونشره ومنقاشته ومساءلته... فهكذا يُحيّا الكِبار.

---

(1) أبو عبد الرحمن السلمي، مسائل وتأويلات صوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (ت 412/ 1021) ويليه جزء من أحاديث إسماعيل بن نجيد النيسابوري (ت 266/ 976-7)، تحقيق وتقديم بلال الأرفه لي وجرهارد بورينغ، نصوص ودروس (بيروت: دار المشرق، 2010)، ص 43.

الفصل الأول

كمال الصليبي: سيرة إنسان ومؤرخ

عبد الرحيم أبو حسين

يوم رئس كمال الصليبي الامتحان الشفوي لمنحي درجة الدكتوراه، ألقى كلمة مقتضبة ما زلتُ أحتفظ بها بخط يده إلى اليوم. في تلك الكلمة، خاطبني ناصحًا من واقع تجربته والمبادئ التي قادت خطاه في أبحاثه، قال «التواضع هو أرفع فضيلة تُقدَّر بين الباحثين، ولقب الدكتور هو مبعث للسخرية إذا لم يقترن بهذه الفضيلة».

ربما يستغرب من لا يعرف الرجل صدور هذا الكلام عن عالم بمثل شهرته، لكن أهمية اعتقاده هذا واضحةٌ في رغبته واستعداده الدائمين لإعادة النظر في ما كان درسه سابقًا، سعيًا إلى تعميق الفهم، مُخاطرًا بنقد أحكامه السابقة المتعلقة بالماضي. وربما كان بمقدور المرء أن يعتبر أن فلسفته وتفانيه اللذين لا يتزعزعان حيال هذه الفضيلة قد وسما إنجازاته الأكاديمية وحياته.

من عرف كمال الصليبي يعرف تمامًا أن من غير الممكن فصل الصليبي المؤرّخ عن الصليبي الإنسان، بل أن ذلك غير مستحسن، إذ اتّسم موقفه من السلطة بقلة الاحترام على نحو لا سبيل إلى شفائه، وهي سمة تقول الكثير عن نظرته إلى الحياة، وعن عمله البحثي. يبدو ذلك واضحًا بصورة ممتعة في الرسالة المطوّلة التي كتبها كسيَرة ذاتية، بناءً على طلب من محرري مجلة دير شبيغل الألمانية، تمهيدًا لنشر كتابه **التوراة جاءت من جزيرة العرب**. في هذه الرسالة، يعرض الصليبي للمحررين سيرة ذاتية مسهبة يغدو فيها، بوعي أو بغير وعي، هو وعائلته، شخصيات لا تنفصل عن قصة لبنان، مركّزًا على المتمردين والعصاة والأشقياء ومن يمكن وصفهم بالبذور السيئة في العائلة، الذين كانت سيرتهم تبعث في نفسه الحبور على نحو واضح. وبينما يرجّح أن تركّز مثل هذه السيرة على مساهمات أفراد من العائلة في حقلي الطب والتعليم في لبنان، بوصفهم روّادًا ومؤسسين لسلسلة المدارس التي عرفت في أواسط القرن التاسع عشر باسم

«المدارس اللبنانية» في كثير من القرى الجبلية، لم ينطلق توصيفه الأساس لجده من عمله طبيبًا، بل من مشاركته في التمرد على إدارة الكلية السورية الإنجيلية في أثناء ما عُرف بـ «قضية داروين» في عام 1882، ما اضطره إلى تقديم امتحان الإجازة في الطب في اسطنبول. ويأتي أول ذكر لعائلته، بعد انتقالها من سلسلة جبال لبنان الشرقية إلى جبل لبنان الشمالي، بمناسبة تحالفها مع عشيرة شيعية في منطقة بعلبك في واحدة من «حروب الماعز» سيئة الصيت التي أدت إلى إبادة المقدمين من سلالة ابن أيوب في بشرّي في عام 1547. كانت روايته عن أحد أفراد العشيرة المغمورين، المدعو قمر الدين الصليبي، جذلة، حين أدّى سلوك هذا الأخير غير السويّ إلى صدور أمر عثماني رسمي باعتقاله. كما رأى إنسانية أولئك في عيوبهم، وهو عنصر في موضوعاته لم ينس أبدًا تسليط الضوء عليه في أعماله.

تجعلنا روايته عن نفسه نشعر أنه صار مؤرخًا بالحظ، إذ أنبأت تجربة كمال الصليبي الشاب الأولى في التعليم عن مستقبل أكاديمي غير واعد. فما رغب في – ولا قدر على – إلزام نفسه دراسة أي موضوع باستثناء الدراسة في الكتاب المقدس والموسيقى. وأرسل ناظر ثانوية برمّانا في نهاية سنة الصليبي الثانية في المدرسة رسالة إلى والده يقترح عليه فيها أن يوقف دراسة ولده ويرسله إلى مزرعته لتعلّم الزراعة بالممارسة، إذ أجمع أساتذته على أنه غير قابل للتعلّم. ردّ الصليبي الأب بعرضه فرص عمل في المزرعة على أساتذة المدرسة الذين من الواضح أن أحدًا منهم لا يُحسن التعليم.

بقي الصليبي على هذه الحال من عدم التميّز خلال سنوات دراسته في الكلية الدولية (International College)، وخلال معظم سنوات دراسته الجامعية الأولى في الجامعة الأميركية في بيروت. ولا يردّ عدم تميزه هذا إلى تقاعسه عن بذل الجهد المطلوب في الدراسة، بل إلى فرط حماسته لموضوعات مختلفة خارج المنهاج الدراسي. فبدلًا من التركيز على ما هو مقرر له خلال ساعاته في المكتبة، كان يصرف الوقت وهو يتصفّح كتبًا في علم النبات والجيولوجيا وعلم الحيوان وعلم الفلك، ويلتهم مؤلفات شكسبير والمتنبي، ويطور أسلوب كتابة حيويًا ومعبّرًا. ويبدو أنه

كان يقوم بذلك على سبيل الترفيه لا أكثر. دفعه ميله الدراسي من موضوع إلى آخر، فجرّب أن يكتب في الموسيقى (هواية دفعت به إلى تأليف عدد من المسرحيات الغنائية، منها مسرحية The Marchioness of Saden, and the Ladies of Gulhane التي عُرضت بالفعل على مسرح مبنى ويست هول في حرم الجامعة الأميركية في بيروت)، وعلم الأحياء والأدب والعلوم السياسية والتاريخ الأوروبي والدراسات الساميّة، إلى أن اضطر أخيرًا إلى دراسة مؤرخ ماروني محلي، كان موضوع أطروحة الماجستير، لعدم وجود مصادر كافية ليعمل على موضوع شغفه الأصلي: الأساطير العربية. كان هذا من حسن حظه، إذ قاده في النهاية إلى جامعة لندن، حيث أقنعه برنارد لويس بتوسيع أطروحته التي لم تكتمل إلى دراسة للتأريخ الماروني في العصور الوسطى، الأمر الذي أطلقه فعليًا كمؤرخ للبنان[1].

توازت مسيرة الصليبي الأكاديمية مع تطور التاريخ اللبناني كنوع كتابيّ، وأقام تأريخًا شخصيًا للبنان من المصادر الأولية التي كان عميق المعرفة بها، وهي المصادر التي لا تزال الركيزة الأساس للكتابة الحديثة اللاحقة عن هذا الموضوع. والجدير ذكره هنا أنه باستثناء كتابه منطلق تاريخ لبنان 634-1516 الذي يدرس تاريخ البلد في تسعة قرون، لم يؤلف الصليبي كتابًا عامًا لتاريخ لبنان، على غرار آخرين كثر، واختار بدلًا من ذلك أن يركّز على فترات زمنية منفصلة ذات حدود جغرافية ومفاهيمية محددة[2]. لهذا السبب، كانت أحكامه حاسمة وخالية عمومًا من هشاشة المفارقات التاريخية التي غالبًا ما ترافق المزج بين فترات زمنية متمايزة داخل مساحة جغرافية واحدة. لكن، ربما كان الأهم من مساهماته الجوهرية في معرفتنا لبنان وماضيه هو أعماله التأريخية والنقدية التي طبعت بداية حياته المهنية ونهايتها. كان أمرًا مهمًا أن نتعلم تاريخ لبنان على يديه، لكن الأهم من ذلك بكثير أنه علمنا كيف نفكر في تاريخ لبنان. كان هذا أمرًا واجهه وحسمه في حياته المهنية، إذ واجه تناقضات الماضي وهي تظهر في نزاعات الحاضر، ما دفع البلد الذي يحبّه في نهاية المطاف إلى الغرق في دوامة التدمير الذاتي.

(1) يروي الصليبي حوادث فترة دراسته الثانوية في برمانا (لبنان) في: كمال الصليبي، طائر على سنديانة: مذكرات كمال الصليبي (عمّان: دار الشروق، 2002)، الفصل الخامس، ص 89-106.

(2) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، 634-1516 (بيروت: دار نوفل، 1979).

تناول الصليبي في حياته المهنية عددًا من الموضوعات المتباينة للغاية، تراوحت بين موضوعات الكتاب المقدس والموضوعات المعاصرة، امتدت من شبه الجزيرة العربية مرورًا بالأردن وسورية وصولًا إلى لبنان. لكن بحثي هذا يقتصر على عمله في التاريخ اللبناني.

إذا كان للمرء أن يصنف عمله في هذا الحقل، فإنه يأتي مندرجًا في ثلاثة مجالات مختلفة: الطور التأريخي والتاريخ السياسي أو التقليدي، والأهم من ذلك كله، أعماله النقدية.

تتجلى المرحلة الأخيرة من بحثه العلمي بوصفها مرحلة من حياته بقدر ما هي مرحلة من بحثه، ذلك أن جانبًا من تقويمه النقدي لتاريخ لبنان أتى انعكاسًا للحرب الأهلية الطويلة في لبنان، والأساطير التاريخية الجوفاء التي ساعدت في تبرير تلك الحرب ودفعها قُدمًا. بالنسبة إلى الصليبي، لتاريخ لبنان قيمة تكمن أعمق من مجرد الكلمات في صفحات الكتب. فحاول من خلال كتاباته أن يعلّم الشعب اللبناني ما يجب أن يتعلمه عن نفسه، ربما على أمل أن يتخلى عن تلك الافتراضات والمعتقدات المُساء فهمها التي مزقته إربًا. ولم يكن تحطيمه الأصنام موضع تقدير دائم، إذ كان وليد رفضه فكرة التاريخ بوصفه تراثًا يتسم بالقداسة إذا كتب على أسس واهية. وعلى الرغم من انتقاده الشديد عيوب التواريخ والمنهجيات لدى مؤرخين لبنانيين آخرين، فإنّ منطقه ودوافعه كانت أكثر تواضعًا مما قد يبدو. وعلى عكس أولئك الذين كانوا محلّ انتقاده، سعى كمال الصليبي إلى تقدّم المعرفة وليس إلى الوصول إلى الحقيقة.

أولًا: مرحلة كمال الصليبي التأريخية

في مؤتمر نُشرت وقائعه في الكتاب الذي حرره برنارد لويس وبيتر. م. هولت، بعنوان **مؤرّخو الشرق الأوسط**[3]، أطلق الشاب كمال الصليبي انتقادات لاذعة طالت الحقل التاريخي اللبناني: «على الرغم من حقيقة أن معظم أعمال

(3) Bernard Lewis and P. M. Holt, eds., *Historians of the Middle East* (London: Oxford University Press, 1962).

المؤرخين الموارنة ظهر مطبوعًا، لم يولِ البحث العلمي اللبناني الحديث معالجة هذه الأعمال معالجة نقدية كبير اهتمام، وفي حين مال إلى استخدامها كمعايير مرجعية مطلقة، فإنه ترك موثوقيتها من دون مساءلة تُذْكَر»[4]. كما أمدّ اشتغاله على التواريخ والمؤرّخين هذا الحقل بعدد من الأعمال التي لا غنى عنها، والتي تلقي الضوء على السرد التاريخي باستخدام المصادر من جهة والتدقيق في صحتها التاريخية وفي تحليلها من جهة أخرى. من أبرز مساهماته في هذا الصدد، **المؤرّخون الموارنة خلال العصر الوسيط**[5]، ويحلل فيها شخصيات ثلاثة من المؤرخين الموارنة الأساسيين وأعمالهم، هم جبرائيل ابن القلاعي وإسطفان الدويهي - اللذان بنى على أعمالهما الجزء الأكبر من التاريخ اللبناني في مرحلته المبكرة - وطنوس الشدياق الذي قدّم عرضًا تاريخيًا علمانيًا مفصلًا لعائلات الأعيان من المشايخ والأمراء في لبنان في كتابه **أخبار الأعيان في جبل لبنان**. وتعمد مقالته اللاحقة، «تأريخ الموارنة التقليدي»، إلى تشريح المصادر تشريحًا نقديًا، وتثني على إنجازاته، لكنها تبرز عيوبها أيضًا. وحين نُشر كتابه **المؤرّخون الموارنة خلال العصر الوسيط**، كان أول مؤلف نقدي من نوعه يتناول المصادر التاريخية اللبنانية، على الرغم من أنها كانت - ولما تزلْ - قيد استخدام جميع المؤرخين في كتاباتهم على لبنان في الحقبة العثمانية، علمًا أن هذه المصادر لم تكن نافلة القيمة، بل رسمت صورة مفصلة لتاريخ العائلات الكبرى وحياتها، وللفاعلين الكبار وللأماكن. وهذا ما يجعل أي قراءة ساذجة لهذه المصادر أمرًا مضللًا.

نظرًا إلى وجود عدد محدود من النصوص الموثّقة التي يمكن الاعتماد عليها، فإن كثيرًا ما وجد المؤرخون الحاليون الذين بذلوا الجهد لتحدي الرواية التاريخية التقليدية أنفسهم يقعون في مطبات المصادر المتوافرة، فاستمدوا حججهم من المصادر التي سعوا إلى نقدها. والأسوأ من ذلك أن اتجاهًا تطور بين بعض المؤرخين نحو تحدي عمل الصليبي لمجرد التحدي، اعتمادًا على أحكام

---

(4) Kamal Salibi, «The Traditional Historiography of the Maronites,» in: Lewis and Holt, p. 212.

(5) Kamal Salibi, *Maronite Historians of Medieval Lebanon*, Oriental Series; no. 34 (Beirut: American University of Beirut, Faculty of Arts and Sciences, 1959).

الدويهي أو مزاعمه المجتزأة، من دون الاعتراف بالأسباب الموجبة التي دفعت بالصليبي، وبي أنا أيضًا، إلى التشكيك في صحة تلك المزاعم في المقام الأول، وفي دوافعها[6].

في الحقبة التاريخية الأولى للبنان، ارتبط التأريخ - الماروني بشكل خاص - ارتباطًا وثيقًا بالمصالح التاريخية الضيقة للكنيسة، وكان يعكس في بعض الأحيان التوتر السياسي والكنسي في الجبل. وجاء أهم الأعمال التاريخية التي تناولت لبنان من البطريرك الماروني إسطفان الدويهي الذي كان عملاه المفصلان والموثقان بشكل جيد **تاريخ الطائفة المارونية**[7] و**تاريخ الأزمنة**[8]، أكثر المصادر الموثوقة لدى المؤرخين اللاحقين، مثل الشهابي والشدياق ويوسف الدبس... وآخرين. وكان الدويهي وابن القلاعي قد تلقيّا تعليمهما في روما، وكانا مهتمين إلى حد ما بضمان النقاء التاريخي للطائفة وتبريره وتأكيده لأسباب دينية أو بيروقراطية. يعتبر كتاب **مديحة على جبل لبنان** عمل ابن القلاعي الأبرز[9]، يجمع التحليل التاريخي والوعظ التعليمي والهجوم السياسي على تدفق الزنادقة اليعقوبيين إلى المنطقة، في ظل إحساس بعدالة العهد القديم الكونية. أمّا تحليل الدويهي التاريخي فهو أكثر حرفيةً، وهو لذلك أشد خطرًا على المؤرخ.

كان استخدام الدويهي المصادر غير المارونية، إضافة إلى سجلات الكنيسة المارونية والمراسيم البابوية والتواريخ الإقليمية والمؤرخين المحليين كابن القلاعي، خطوة بالغة التأثير في كتابة تاريخ المنطقة. كما كانت نيته تقديم تاريخ عام لبلاد الشام في إثر الغزو الصليبي خطوة ثورية، إذ قدم تاريخ المنطقة وتاريخ

---

(6) آخر الأمثلة على مثل هذه الأعمال هو: William Harris, *Lebanon: A History, 600-2011* (London: Oxford University Press, 2012).

(7) أسطفان الدويهي، **تاريخ الطائفة المارونية**، تحقيق رشيد الخوري الشرتوني، سلسلة الموارنة تاريخ وتراث؛ 8 (جبيل: دار ومكتب بيبلوس، 2010).

(8) أسطفان الدويهي، **تاريخ الأزمنة، 1095-1699**، تحقيق فرديناند توتل (بيروت: [د. ن.]، 1951).

(9) نشرت مع نصوص أخرى في: جبرائيل اللحفدي بن القلاعي، **حروب المقدمين، 1075-1450: زجلية للمطران جبرائيل اللحفدي المشهور بابن القلاعي أسقف قبرس الماروني**، تعليق بولس قرألي (بيت شباب - بيروت: مطبعة العلم، 1937).

السكان الموارنة والكنيسة المارونية بوصفهما جزءين من وحدة تاريخية شاملة. أما في تاريخه العام الاعتذاري عن الطائفة المارونية، تاريخ الطائفة المارونية، فالدويهي يحاول تقديم الأدلّة على صلة الموارنة غير المنقطعة بالعقيدة الكاثوليكية. وكان ذلك، في جزء منه، ردًّا على اتهامات بالهرطقة صدرت عن روما بعد تحريها الممارسات المارونية، وإرسال بعثة إلى الجبل مهمتها إعادة تثقيف من ضلّ من الرعيّة المارونية، الأمر الذي أثار استياء الزعماء الموارنة.

لاحظ الصليبي أن علاقات الدويهي الوثيقة بالأمير الدرزي المتمرد أحمد المعني دفعته إلى رواية التاريخ المتعلق بالدروز بأسلوب سردي تاريخي محابٍ بطريقة حاذقة للإمارة المعنيّة، حيث يلمّع صورة أبطاله المعنيّين ولا يذكر أي حوادث تاريخية يمكن أن تنعكس سلبًا عليهم. ولعل هذا جليًا في تصوير الدويهي الأمير الدرزي فخر الدين وتحالفه مع الكنيسة المارونية، خصوصًا مع آل الخازن في كسروان، بطريقة دفعت الصليبي لاحقًا إلى أن يلاحظ في كتابه بيت بمنازل كثيرة أن فخر الدين حظي بصورة البطل في التأريخ الماروني أكثر مما حظي به في تأريخ طائفته[10].

هكذا، بدأ كمال الصليبي مساهمته في التاريخ اللبناني بنقد التاريخ اللبناني ومؤرخيه. والحقيقة، أنه يمكن لسطور بحثه الجريء المبكر «كتابة التاريخ التقليدية...» أن ترد في كتابه الأخير عن تاريخ لبنان بيت بمنازل كثيرة، وكان خلص في عام 1962 إلى أنّ «الاتجاه الاعتذاري في التأريخ التقليدي للموارنة يواصل إرباك البحث الماروني، حيث يواصل المؤرخون الموارنة اليوم، مثل أسلافهم، الكتابة دفاعًا عن طائفتهم والمبالغة في أهميتها (...) ولا يمكن أن نتوقع تغييرات جديدة في التأريخ الماروني ما دام المؤرخون الموارنة المعاصرون عاجزين عن القيام بإعادة تقويم شاملة للتأريخ التقليدي في ضوء الدراسات الحديثة»[11].

---

(10) A. Abu Husayn, «Duwayhi as a Historian of Ottoman Syria,» *Bulletin of the Royal Institute for Interfaith Studies*, vol. 1 (1999), pp. 1-13.

(11) Salibi, «The Traditional Historiography,» p. 225.

ثانيًا: التواريخ السياسية اللبنانية

خاب أمل كمال الصليبي في نهاية مسيرته بالرواية التاريخية اللبنانية التقليدية وانتقدها، لكنه كان مع ذلك واحدًا من المساهمين المميزين في هذه الرواية. إلا أن الصليبي مؤرّخًا، خلافًا لكثير من التأريخ المسيّس مذهبيًا الذي واجهه مواجهة شاملة، كان يسعى دائمًا إلى تقديم موضوعه بكل ما يستطيع من الدقة، حتى لو عنى ذلك تحديًا مباشرًا لمعطيات تاريخية راسخة، أو حتى لمصادر أولية، إذا وجد أدلة متضاربة ودافعًا للنفاق. بلغ التزامه على هذا الصعيد أن وبّخه يومًا ألبرت حوراني ممازحًا، وهو لا يزال باحثًا شابًا، لنقده الباحث اليسوعي الشهير هنري لامنس بقسوة، في ورقته «الإسلام وسوريا في كتابات هنري لامنس»، إذ انتقد تأثير نظرته السياسية في أعماله[12].

تميزت بحوث الصليبي بأنها كانت مدعّمة بحسّ فضول لا شفاء له، وبافتتان بالتفصيلات الدقيقة والمشكلات الخفية التي تبرز نتيجة بحثه. وكثيرًا ما كان يتذكر، بظرفه الساخر المعتاد وانتقاصه الساحر من قدر ذاته، قوله لإحدى صديقاته: «انظري كم أنقذتُ من الأجلّاء، وأخرجتهم من العتمة إلى النور». ما كان منها إلا أن ردّت قائلةً: «يصعب الحديث هنا عن العتمة والنور، الأمر ببساطة أنك أخرجتهم من عتمة لتدفنهم في أخرى»[13].

لا شك في أن اهتمامه بالتفصيلات وبغوامض الأمور كان عونًا ثمينًا له طوال حياته المهنية. ولأن التاريخ السياسي لجبل لبنان والمناطق المحيطة به محلّ إهمال عمومًا في التأريخ لبلاد الشام أو الدولة العثمانية، ما لم تكن هذه المناطق في حالة استثنائية أو في حالة تمرد صريح، فإنَّ عمل الصليبي التاريخي المفصَّل تطلّب منه أن يتفحّص المصادر اللبنانية بصورة نقدية بينما كان يلتقط المعلومات المحدودة التي يمكن الحصول عليها من الكتابات الخارجية المعاصرة. لكنه بقي في جميع أعماله منطلقًا من منظور الكاتب اللبناني. وهذا ما أضفى على كتابته

(12) Lewis and Holt, pp. 330-342.

(13) يروي الصليبي هذا في سيرته الذاتية أيضًا.

التاريخية صبغة التواريخ المحلية. ويتضح من كتاباته أنه لم يكن على دراية تامة بالأسماء والأماكن فحسب، بل بجدالات الرواية التاريخية إلى درجة أن أحكامه الوحيدة في هذا الشأن كانت تأتي على أساس شخصي نوعًا ما. فإذا ما تعرضت شخصية تاريخية لإساءة، فذلك لعيوب أو أفعال شخصية، وليس للصيت الذي أصبح لها أو للعلاقة التي تربطها بشخصية معينة في ذلك الميدان الكيدي الذي صبغ السياسة الجبلية تاريخيًا. وحتى حين أتى هذا الانتقاد مباشرًا، فإنه اتخذ جانب التحفظ بشكل مبالغ فيه، ما جعله أثقل وقعًا.

1 - تاريخ العائلات السياسية

كان تأريخ عائلات الوجهاء من أفضل مساهمات الصليبي في التأريخ اللبناني، إذ أبرز من خلاله التاريخ السياسي للبلد وللمنطقة. فإضافة إلى مساهمته في موسوعة *Encyclopaedia of Islam* عن آل حرفوش في بعلبك وفخر الدين الثاني، نشر سلسلة من الدراسات تغطي تاريخ لبنان بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر. وقدم في دراسته «آل بحتر في الغرب: أسياد العصور الوسطى في بيروت وجنوب لبنان»[14] لمحة عامة عن حكم أمراء آل بحتر، وهم أمراء دروز تنوخيون حكموا منطقة الغرب[*] من أوائل القرن الثاني عشر، وانتهت سلالتهم على يد علي علم الدين وحزبه الدرزي اليمني بعد وفاة فخر الدين في عام 1635. لم تهمل مقاربة الصليبي تعقيدات السياسة المحلية والإمبراطورية وسخافاتها، لكنها لم تؤثر في حكمه على الأشخاص، وآل بحتر هم المثال الأفضل على ذلك، إذ كانت مهمتهم مضايقة الفرنجة الذين استقروا في بيروت، واستفادوا من القوة التي وفّرتها لهم قدرتهم العسكرية، والتضاريس الوعرة للمنطقة الجبلية التي يسيطرون عليها، وتحكمهم بالطريق الوحيدة بين بيروت ودمشق، فطوروا علاقة معقدة مع الفرنجة وأعدائهم، وتلاعبوا بهم بحسب مصالحهم. وبعد فترة قصيرة من استيلاء قلاوون

---

(14) Kaaml Salibi, «The Buhturids of the Garb: Mediaeval Lords of Beirut and of Southern Lebanon,» *Arabica*, vol. 8 (1961), pp. 74-97.

(*) منطقة تضمّ الساحل الغربي من جبال لبنان والسفوح المجاورة له، تبدأ ببيروت وتمتد جنوبًا حتى أعالي الدامور.

على سواحل بلاد الشام في عام 1292، استخدم آل بحتر صلاتهم المحلية لتبرير تعيينهم حكامًا وراثيين للغرب كجزء من جند الحَلْقَة، وهي القوات غير النظامية لدى السلطنة المملوكية. على الرغم من اضطرار الصليبي إلى الاعتماد، بشكل يكاد يكون حصريًا، على عمل مؤرخ آل بحتر، صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت والأمراء البحتريين من بني الغرب**[15]، إلا أن استنتاجاته تعكس أهمية بعيدة المدى لإقامة نظام الأرستقراطية الإقطاعية الذي حافظت عليه السلطنتين المملوكية والعثمانية على التوالي بصورة شبه دائمة، حتى نهاية الإمارة الشهابية، وإنشاء القائمقاميتين في عام 1842.

بين عامي 1967 و1973، نشر الصليبي سلسلة من ست دراسات تناول فيها حكام لبنان وأمراءه ومقدّميه في أواخر العصر المملوكي وبداية العهد العثماني: «شمال لبنان في ظل هيمنة غزير (1517-1591)»[16]، وركز فيها على آل عسّاف التركمانية التي حكمت كسروان، و«آل سيفا وولاية طرابلس 1579-1640»[17]، و«فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية»[18] التي تحرى فيها تاريخ فخر الدين المعني، و«سر البيت المعنيّ»[19] التي استكشف فيها تنافس مجموعة متداخلة من الأسر السياسية وتمرداتها وولاءاتها المتبدلة في الريف اللبناني، من أواخر العصر المملوكي المتأخر حتى نهاية القرن السابع عشر، و«موارنة لبنان تحت حكم الفرنجة والمماليك (1099-1516)»[20] و«مقدّمو بشرّي: زعماء

(15) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، أشرف على تحقيقه فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي (بيروت: دار الفكر الحديث، 1969).

(16) Kamal Salibi, «Northern Lebanon under the Dominance of Gazir (1517-1591),» *Arabica*, vol. 14 (1967), pp. 144-166.

(17) Kamal Salibi, «The Sayfas and the Eyalet of Tripoli, 1579-1640,» *Arabica*, vol. 20 (1973), pp. 25-52.

(18) كمال الصليبي، «فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية،» في: أبعاد القومية اللبنانية (الكسليك - بيروت: جامعة الروح القدس، 1970)، ص 85-111.

(19) Kamal Salibi, «Secret of the House of Ma'an,» *International Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 6 (1973), pp. 272-288.

(20) Kamal Salibi, «The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk Rule (1099-1516),» *Arabica*, vol. 4 (1957), pp. 288-303.

شمال لبنان الموارنة 1382-1621»[21]، تناول فيهما تاريخ الطائفة المارونية، مستخدمًا مصادر مارونية في المقام الأول، كي يفصّل العلاقات الداخلية ضمن الزعامة المارونية وعلاقاتها بالأوروبيين والقوى الإسلامية المحيطة بها. تمثل هذه البحوث في النخب الحاكمة وارتقائها وتأثيرها في الريف وزوالها مساهمات لا تقدر بثمن، تُضاف إلى أدبيات التاريخ السياسي اللبناني، وهي محاولة مبكرة لإعادة النظر في الرواية التاريخية اللبنانية التقليدية ومساءلتها.

في معظم الحالات، مهّد الصليبي لموضوعاته من خلال تقديم مخطط تفصيلي للجماعة، ومعلومات ذات صلة من شأنها أن تساهم في فهم مناقشته. على سبيل المثال، يبدأ دراسته عن آل بحتر بموجز لتاريخ الدروز وعقيدتهم وأصولهم في المنطقة؛ وفي تناوله أمراء آل عسّاف التركمان في شمال لبنان، يقدم تفسيرًا لوجود مجموعات تركمانية في الجبل، ويربطهم بآل بحتر الذين مُنحوا مناصب وراثية في المنطقة. كما استخدم الصليبي تلك المقدمات على نحو فاعل، لا ليقدم معلومات غامضة وضرورية عن أصول أشخاصه وخصائصهم فحسب، بل ليوضح صلتها بمركز الدولة والقوى المتنافسة التي من شأنها أن تؤثر في تاريخها. وبالنسبة إلى بعض السلالات، ولا سيما آل عسّاف الذين اتسموا بلين العريكة وحظوا بتقدير كبير، كانت هذه الروابط بسيطة غير ذات شأن، نظرًا إلى علاقة آل عساف الممتازة برعاياهم الموارنة وإلى توفيرهم السلامَ والازدهار في إقطاعهم، في وقت كان فيه جيرانهم العدوانيون في الشمال والجنوب والشرق متورطين في دوامة الصراع على السلطة.

بالنسبة إلى أسر أخرى كالمعنيّين وآل سيفا، كانت العلاقات بين الأمراء المتنافسين معقدة، وغالبًا ما كانت تتغير بعنف بسبب الخصومات الشخصية وحالات الثأر، وبسبب الاضطرابات الإقليمية والتحولات الخطرة، بحسب الرياح التي تهب من اسطنبول. تحرى الصليبي هذه الثارات في «آل سيفا وولاية طرابلس 1579-1640» بشكل أساس، وبشكل أقلّ من ذلك في دراسته عن مقدّمي

---

(21) Kamal Salibi, «The Muqaddams of Bsharri: Maronite Chieftains of the Northern Lebanon, 1382-1621,» *Arabica*, vol. 15 (1968), pp. 63-86.

بشرّي الذين أدت علاقتهم بآل سيفا إلى فقدانهم مركزهم التقليدي بعد استيلاء فخر الدين المعني على طرابلس في عام 1621 (بات هذا دائمًا بعد خنق المقدَّم ورميه من فوق جسر بعد زيارته فخر الدين محتجًا على إعدام ابنه بتهمة القتل). رأى الصليبي في المعنيّين وآل سيفا تعارضًا لافتًا من حيث جذور قوة الأسرتين وممارستهما. فالمعنيّون، شأنهم شأن آل بحتر والإقطاعيين الموارنة، يستمدون نفوذهم من الدعم الذي يتلقونه من طائفتهم، وكذلك آل معن الذين تلقوا دعمًا كبيرًا من الموارنة وكنيستهم. ويلاحظ الصليبي أن عبقرية فخر الدين تكمن، في جزء منها، في انتهازيته واستعداده للتعامل علنًا مع الأوروبيين ليثري مالًا وليتوسع سلطانًا. أمّا علاقة يوسف سيفا بالدولة العثمانية وجيرانه فغالبًا ما كانت مضطربة كعلاقة باقي العناصر الخارجية التي جاءت - أو جيء بها - إلى المنطقة (الكردية أم التركمانية في عكّار)، بسبب ما اعتبره الصليبي دورًا مزدوجًا لهذا الرجل بصفته حاكمًا عثمانيًا وشخصية سياسية لبنانية، الأمر الذي تطلب منه استرضاء اسطنبول، والحفاظ على علاقة جيدة بالرعايا الموارنة في منطقته، والتفاوض مع جيرانه أمراء آل عساف والمعنيّين وآل حرفوش. ولهذا السبب، ثمة رابط بين نجاح المعنيّين وانهيار آل سيفا، لا بالمعنى الحرفيّ فحسب، حيث أبعد فخر الدين آل سيفا عن حكم طرابلس فلم يستعيدوا سلطتهم السابقة يومًا، بل بالمعنى المجازي أيضًا، ذلك أنهم كانوا أضعف من المعنيّين نظرًا إلى افتقارهم إلى الدعم النابع من الصلة المباشرة بالسكان الذين كانوا عماد الأمراء المعنيين، وسند مكانتهم في اسطنبول، بغض النظر عن عدد المرات التي خرقوا فيها البروتوكول، وعهودهم، مع العاصمة.

2- تاريخ النسب المعني

لعلَّ البحث الأكثر تمردًا بين هذه البحوث من المنظور التاريخي اللبناني هو «سرّ البيت المعنيّ» الذي بحث بشكل هرطوقي في نسب فخر الدين الثاني. خلص الصليبي إلى أن الدويهي وحيدر الشهابي حاولا طمس أي ذكر للأمراء المعنيّين القيسيين، أو للحزب اليمني المنافس للمعنيين في الطائفة الدرزية. ويلاحظ الصليبي مسألة مثيرة للاهتمام في نسب فخر الدين، ويربطها بالظهور الغامض لعائلة علم الدين، من العدم، كما يبدو، بعد وفاة فخر الدين.

اكتشف الصليبي في تحرياته إشارة إلى شخص يدعى علم الدين سليمان، اعتقد أنه كان يعمل مستشارًا للأمير قرقماز (والد فخر الدين) عندما أمسك بزمام الطائفة. واستنتج أن يكون فرعا العائلة هذان قد تنافسا في لحظة معينة للسيطرة على الطائفة الدرزية. والحقيقة أن مؤرخي الإمارة كانوا على صلة وثيقة بمركز السلطة، أولًا من خلال أحمد الخالدي الصفدي كاتب سيرة فخر الدين، ثم من خلال الدويهي وعلاقاته الوثيقة بأحمد المعنيّ، ما يضفي صدقية على هذا القول. فطمس تاريخ آل علم الدين يضفي شرعية على مطالبة المعنيّين بقيادة للطائفة بلا منازع. وهذه المقاربة التاريخية، البريئة في ظاهرها، تنطوي على كثير من «الخبث»، فالأسطورة المؤسسة للرواية التاريخية اللبنانية تقوم على فكرة لبنان موحد تحت سيطرة فخر الدين [المعنيّ] الثاني. فإذا لم يكن لبنان، بل والطائفة الدرزية نفسها، موحَّدًا وراء زعيمه المجيد، فإن هذا كفيل بأن يلقي ظلالًا من الشك على صحة الرواية نفسها.

لا شك في أن مساهمة الصليبي التي كان لها أشد الوقع في التاريخ التقليدي للبنان هي عمله الوصفي، **تاريخ لبنان الحديث**[22]، حيث تتبّع التاريخ السياسي والفكري للبنان منذ القرن الثامن عشر حتى فترة الانتداب. وفي هذا الكتاب، كان لا بد للصليبي من أن يحصر اهتمامه في الصراع والتغيير السياسيين اللذين اجتاحا أرجاء الجبل في الثلثين الأولَين من القرن التاسع عشر، وكيف أثر ذلك في تطور اتجاهات الفكر القومي اللبناني المختلفة بين الإنتلجنسيا. وسوف يتحدى الصليبي هذه التنظيرات والسرديات الكبرى في عمله **بيت بمنازل كثيرة**، لكن لما كان عمل الصليبي **تاريخ لبنان الحديث** قد نُشر بعد أعوام ثلاثة فقط من عمل ألبرت حوراني المهم عن التاريخ الفكري العربي **الفكر العربي في عصر النهضة**، فقد جاء متلائمًا مع المناخ الفكري السائد. وفي حين لم ينازع الصليبي آراء حوراني التي جاءت أساسًا ضد أفكار جورج أنطونيوس المبالغ فيها في كتابه **يقظة العرب**، فإنّ تركيزه على واضعي فكرة وجود لبنان موحد ومستقل ربما منح أولئك المفكرين مكانًا أنسب وأدقّ في الأدبيات القومية. كما عالج

(22) Kamal Salibi, *The Modern History of Lebanon* (Delmar: Caravan Books, 1977).

الصليبي في كتابه تاريخ لبنان الحديث عددًا من الفترات الأشد توترًا في تاريخ لبنان، بوصفها جزءًا من التطورات الاجتماعية والسياسية التي غيّرت الوضع الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي القائم في الجبل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أمّا استبعاده الاختلاف الطائفي كعامل مسبب فشكّل افتراقًا كبيرًا عن التفسير الماروني التقليدي للحوادث، إذ قدم تحليلًا واضحًا ومدعّمًا جيدًا لأسباب الصراعات وما ترتّب عنها من آثار.

3 – افتتان بالمكان والزمان

نُشر بعض مساهمات الصليبي الأكثر إثارة للاهتمام والأشد اتّسامًا بالطابع الشخصي، ولو أنها لم تحقق الشهرة التي حققتها كتبه واسعة الانتشار، كأجزاء من وقائع مؤتمرات، أو من خلال جمعيات تاريخية محلية. أتاحت له كتابة أوراق المؤتمرات إعادة النظر في منشوراته السابقة، كما هو الحال في دراسته «جبل لبنان في عهد المماليك»(23)، حيث يحدّث وجهة نظره في شأن الحقبة المعنيّة التي سبق له تناولها، كما أتاحت له أن يطلق لنفسه العنان ليخوض في مجالات اهتمام شخصية على قدر كبير من الصراحة الاستثنائية والفكاهة. وكثيرًا ما كانت أوراق المؤتمرات هذه فرصة للصليبي للتعبير عن افتتانه الواضح والصريح بالمكان والفضاء والكيفية التي يرتبط بها تقدّم التاريخ بموقع هذه الحوادث. ولعل أفضل مثال على ذلك دراسته «بيروت في ظلّ تركيا الفتاة» التي تبدو تأريخًا سياسيًا محوره شخصية سليم علي سلام، لكنها نحتت صورة مهيبة لبيروت وأرستقراطيتها السياسية في أوائل القرن العشرين(24).

يتجلى الحنين إلى المكان أيضًا في التاريخ الذي كتبه عن بلدته بحمدون(25)،

---

(23) Kamal Salibi, «Mount Lebanon under the Mamluks,» in: *Quest for Understanding: Arabic and Islamic Studies in Memory of Malcolm H. Kerr*, edited by S. Seikaly, R. Baalbaki and P. Dodd (Syracuse: Syracuse University Press, 1991).

(24) Kamal Salibi, « Beirut under the Young Turks, as Depicted in the Political Memoirs of Salim Ali Salam,» in: Jacques Berque et Dominique Chevallier, eds., *Les Arabes par leurs archives (XVI-XX^{ème} Siecles)* (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1976), pp. 193-215.

(25) Kamal Salibi, *Bhamdoun: A Historical Portrait of a Mountain Village* (Oxford: Centre for Lebanese Studies, 1997).

والدراسة التي كتبها للكتاب التذكاري الذي نشر تكريمًا لصديقه وزميله لوقت طويل، ديفيد غوردن، عن لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وذلك قبيل نهاية حياته المهنية[26]، وهو في كليهما يشبك تاريخه الشخصي والعائلي الخاص بتاريخ البلد وأولئك الذين مرّوا به. تمثل هذه الفكرة المتكررة في أسلوبه التاريخي خروجًا على المألوف في الأوساط الأكاديمية، حيث تكون الكتابة «عن» موضوع ما. والحال أن بعضًا من أعمق ملاحظاته جاء عند كتابته عن نفسه داخل موضوعه.

ثالثًا: إعادة كتابة التاريخ اللبناني

تتطلب المراجعات التأريخية الشاملة جسارة وثقة، لأنها في أساسها نقد للأعمال والاتجاهات السابقة قصده توجيه الأعمال اللاحقة. بالنسبة إلى كمال الصليبي الذي كرّس حياته المهنية كلها لدراسة تاريخ لبنان، تطلبت هذه المراجعات قدرًا من التواضع، ذلك أن أحكامه الجديدة كانت في النهاية تُعيد النظر في بعض الأطروحات التي سبق له أن طرحها في أعماله السابقة. وبالنسبة إلى رجل كرّس نفسه لمهنته وللارتقاء بها، كانت هذه المراجعات ضرورية للسجل الذي كان هو نفسه قد بدأه في مستهل مسيرته الأكاديمية. في الامتحان الشفوي الذي عقد لمناقشة أطروحتي للدكتوراه، ألحّ على الحاجة إلى التواضع والتغيير من أجل الوضوح والتقدم. وخاطبني قائلًا: «يجب أن تكون دائمًا على استعداد لإعادة النظر في صحة استنتاجاتك، في ضوء البحوث العلمية الجديدة، والنزول عند أحكام الآخرين تكون أدق حين تتوافر، والسرور بتقبّل النقد عندما يكون النقد مخلصًا يهدف إلى تقدّم المعرفة لا إعاقتها». لم تمر أعوام على هذا حتى نشر نقده الثوري للتاريخ اللبناني في كتابه بيت بمنازل كثيرة.

سعي الصليبي وراء المعرفة لا وراء الحقيقة، ما جعل بيت بمنازل كثيرة نقطة انطلاق جديدة لتاريخ لبنان، أو النقطة التي لا بدّ من أن تبدأ منها كل تواريخ البلد الحالية. وعلى الرغم من أن استخفافه بحرمة أيقونات التاريخ اللبناني وأساطيره

(26) Kamal Salibi, «Living in Changing Times,» in: *Franco-Arab Encounters: Studies in Memory of David C. Gordon*, edited by L. Carl Brown and Matthew S. Gordon (Beirut: American University of Beirut, 1996).

أزعج البعض، فإنه شعر بأن «إعادة النظر» التاريخية ضرورية لصحة الأمة، وما أن تُكسر الأسس القديمة التي قام عليها الصراع وتُنحَّى جانبًا، حتى يمكن أن تبرز هوية وطنية قائمة على التفاهم المشترك والاحترام المتبادل، تشكل مجتمعًا أكثر استقرارًا. كان الصليبي يمزح أحيانًا في أوساطه الخاصة، ويقول إن تاريخ لبنان كلّه أكاذيب، لكن هذا النقد ذاته هو الذي ترك أقوى الأثر في حقل التاريخ اللبناني. ويُعَد بيت بمنازل كثيرة الذي حظي بالإجماع على أهميته، ثورة كاملة في الطريقة التي ننظر بها إلى تاريخ لبنان ونعالجه. تناول فيه ما اعتبره عيوبًا كبرى في تاريخ لبنان، تتمثل في وجود كثير من التواريخ، وفي اختلاف هذه التواريخ في شأن القضايا الأساسية بسبب الحساسيات الضيقة. وتساءل الصليبي: «هل يمكن أن يكون كلا طرفي الحرب على تاريخ لبنان مخطئًا، وأن الحقيقة التاريخية تكمن في مكان آخر؟ أم أن كلا الطرفين محق، لكنهما كانا ينظران إلى الحقيقة التاريخية ذاتها من زاويتين مختلفتين؟ وفي كلتا الحالتين، هل هناك ما يُدعى حقيقة تاريخية مطلقة في ما يتعلق بالمسألة التي نحن بصددها؟... هل هناك رابحون وخاسرون، أم إنها لعبة لا نهاية لها ولا يمكن لأي طرف أن يفوز بها أو يخسرها؟»[27].

في بلد هدمته الطائفية والحرب الأهلية في أواخر الثمانينيات، لم يكن استخدام كلمة «حرب» مجازيًا أو مستخدمًا على سبيل المزاح، إذ كانت الرؤى المتناحرة للهوية اللبنانية نتيجة طبيعية لسوء فهم تاريخ لبنان الذي استُخدم لتبرير المذبحة، سياسيًا وأخلاقيًا.

يلاحظ الصليبي في الفصل الختامي من بيت بمنازل كثيرة أن «السبيل الأفضل لتحقيق درجة التضامن المطلوبة في الأمم المنقسمة، مثل لبنان، للحفاظ عليها، حيّة، هو التعرف على حقيقة ماضيها الكاملة وفهمها، وفي التكيّف مع وقائع هذا الماضي». وهذا الرأي مهم لأنه يضع بيت بمنازل كثيرة في فئة فريدة بين الأعمال البحثية؛ فعلى الرغم من أن عرضه التأريخي موجه بشكل واضح إلى أقرانه من الباحثين الآخرين في تاريخ لبنان الذين يعرفون المصادر، فإن أسلوبه

(27) Kamal Salibi, *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered* (London: I. B. Tauris, 1988), p. 215.

السهل الممتنع وحججه المحددة تتوجه إلى اللبنانيين أنفسهم. فكمال الصليبي الذي لم يتوقف عن التدريس كان يسعى إلى تثقيف أمة كاملة بتعريفها الأخطاء التي تعترض سبلها، وكان خير من يقوم بذلك.

في صباح يوم الخميس، الأول من أيلول/ سبتمبر 2011، توفي كمال سليمان الصليبي، أحد أكبر مؤرخي لبنان، بسكتة دماغية، مخلفًا وراءه أعماله وأصدقاءه وإرثه الحيّ من طلاب تخرجوا على يديه، يواصل كثير منهم نقل معارفه والمبادئ التي أقام عليها حياته إلى جيل جديد من المؤرخين. ولهذا نبقى مدينين له، ونسعى جاهدين لنرقى إلى مستوى المعايير العالية التي تمسك بها طوال حياته.

الفصل الثاني

كمال الصليبي في تأريخه للبنان الحديث ولصورة الأمير المعنيّ من لبنان - الملجأ إلى لبنان - المأزق(*)

وجيه كوثراني

(*) هذا جزء من الدراسة التي قُدّمها د. وجيه كوثراني في الاحتفال التذكاري بـ «كمال الصليبي وأعماله» الذي نظّمته دائرة التاريخ والآثار في الجامعة الأميركية بتاريخ 2-3 أيار/مايو 2012. ونُشِرَت هذه الدراسة مُسبقاً في: وجيه كوثراني، «كمال الصليبي في تأريخه للبنان الحديث،» تبيّن، السنة 2، العدد 7 (شتاء 2014)، ص 97-106.

عند التطرق إلى مساهمة كمال الصليبي بمباحثه في حقل تاريخ لبنان الحديث والمعاصر، تستوقفني كقارئ وباحث في هذا التاريخ مسألتان رئيستان عالجهما كمال الصليبي في جملة من كتبه ودراساته التي تناول فيها التاريخ اللبناني على امتداد سنوات: **الأولى** مسألة الإمارة اللبنانية، إذ يتبيّن إشكالها عندما يُطرح السؤال الآتي (وهو إشكالي بامتياز): هل لهذه الإمارة ميزة أو ميزات تجعلها ذات خصوصيات، تبرر القول إنها كانت الصيغة التاريخية (أو النواة التاريخية) المؤسِّسة أو الممهِّدة للدولة اللبنانية الحديثة، وإن البطل المؤسس هو فخر الدين المعني؟ لكمال الصليبي رأي توصَّل إليه عبر بحث إمبريقي (تجريبي) في المصادر، مفاده أن لا أساس لهذه الخصوصية. فكيف توصَّل إلى هذا الموقف؟ **والثانية** مسألة تصوّر الماضي في حاضر لبنان. والسؤال الإشكالي هنا: كيف يتصوّر اللبنانيون ماضيهم؟ وهل يصلح هذا التصوّر، وهو غالبًا تصور الطوائف لماضيها، أساسًا لبناء لبنان جديد؟

يحاول هذا الجزء من الدراسة أن يقرأ باختصار معالم المنهج في تناول كمال الصليبي هاتين المسألتين، إذ اخترتهما - متعمدًا - لتبيان محطتين (أو حيّزين) في مسار البحث التاريخي المتعلق بلبنان الحديث عند الصليبي: محطة تجريبية إمبريقية أوصلته إلى الرأي القائل إن الإمارة ليست إلّا نظام التزام، ومحطة توليفية أوصلته إلى نحو من المفهومية في فهم الماضي وعلاقة هذا الماضي بالحاضر؛ حيث يحاول الصليبي أن يحرر هذا الماضي من شوائب السياسة في ذاكرات الطوائف اللبنانية (بتعبير الصليبي: نسيج العناكب في منازل اللبنانيين).

أولًا: بالنسبة إلى الحيّز الأول - التجريبي

في حوار أجرته مجلة **الفكر العربي** مع كمال الصليبي في عام 1980 عن كتابته في تاريخ لبنان الحديث، يقول في موضوع تأريخه للإمارة ما يأتي: «كنت

في السابق أتكلم عن 'الإمارة اللبنانية' وأتبع غيري في الاعتقاد أن هذه الإمارة ظهرت وتوطّدت أركانها للمرة الأولى في عهد فخر الدين بن معن. فلمّا توسّعت معلوماتي عن طريق البحث والممارسة للمنهج التاريخي العلمي، تبيّن لي بما لا يقبل الشك أن ما كنت أعتبره في البداية 'إمارة لبنانية'، بحسب التقليد المألوف، لم يكن في أساسه إلّا التزامًا سنويًا قابلًا للتجديد لجباية الضرائب للدولة العثمانية في بعض المناطق»[1].

في معرض التعليق على نص كمال الصليبي المقتبس من محاورته في عام 1980، ومن دراسته – محاضرته «فخر الدين والفكرة اللبنانية»[2]، يجدر تأكيد المعطيات الآتية:

– يعتمد كمال الصليبي بصورة أساسية على المصادر الوثائقية وعلى نقدها، وعلى مقارنتها بمصادر أخرى، ليستنتج «حقائق» تدحض ما هو سائد من «أخبار» في كتب من التاريخ، تُعتمد كمصادر أولى رائجة، مثل كتاب طنوس الشدياق **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، وكتاب عيسى اسكندر المعلوف **تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني**[3]، وهو في اعتماده على العمل الوثائقي المباشر (النقد والنقد الداخلي)، قلّما يعتمد على المفاهيم والأطر النظرية العامة المستمدة من علوم اجتماعية وإنسانية.

– يدحض الصليبي، مثلًا، قصة آل معن وقدومهم إلى الشوف كما يرويها الشدياق: «ليس هناك في التواريخ ما يثبت هذه القصة، بل هناك في القصة ذاتها أخطاء تاريخية واضحة، ممّا يشير إلى أنها محاولة متأخرة لفهم أصل الإمارة المعنية في الشوف». (مصادره في نقد رواية الشدياق: صالح بن يحيى، البحتري

(1) «حوار مع كمال الصليبي،» الفكر العربي (كانون الثاني/ يناير 1980)، ص 201.

(2) كمال الصليبي، «فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية،» في: «أبعاد القومية اللبنانية: من الناحية التاريخية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، محاضرات ألقِيَت في جامعة الروح القدس – الكسليك في العام 1970،» ليبانونيسم، <http://lebanonism.com/lebwp/?p=48>.

(3) عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، وقف على نشره رياض المعلوف، نصوص ودروس؛ 31 (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966).

التنوخي في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وابن سباط الفقيه في الربع الأول من القرن السادس عشر، حيث لا إشارة إلى هذه القصة)[4].

- يدحض الصليبي أيضًا قصة لجوء فخر الدين وشقيقه الأصغر يونس، بعد وفاة والدهما قرقماز، إلى كسروان، حيث تربيا في كنف آل الخازن، فيقول: «ليس هناك ذكر لهذه القصة في تاريخ الأمير فخر الدين المعني للخالدي الصفدي الذي عاصر فخر الدين وعمل في خدمته، ولا في تاريخ المحبي الدمشقي المتوفى عام 1699»[5]. كذلك لا ذكر لقصة لجوء فخر الدين وشقيقه إلى كسروان عند آل الخازن، لا في كتاب **تاريخ الأزمنة** للدويهي، ولا في كتاب **الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان** للأمير حيدر الشهابي المتوفى في عام 1835[6].

يقول كمال الصليبي: «لعل أول من روى قصة لجوء الأميرين فخر الدين ويونس إلى كسروان هو الشيخ شيبان الخازن، المتوفى عام 1850. وانتقد هذا المؤرخ البطريرك الدويهي لأنه لم يذكر ما حدث للأخوين المعنيين في السنوات الست التي تلت وفاة والدهما» [7].

يرى الصليبي أن الشدياق تبنّى هذه القصة وأضاف إليها اسم الحاج كيوان الماروني الذي خبأ الولدين في [قرية] بلّونه، وهذه القصة يستعيدها أيضًا عيسى اسكندر المعلوف المتوفى في عام 1956. وفي رواية المعلوف بعض الإضافات إلى القصة، أهمها اجتهاده في تعريف الحاج كيوان[8].

يخلص الصليبي إلى القول: «هكذا تروي تواريخنا التقليدية قصة لجوء فخر الدين وأخيه يونس إلى كسروان وتربيتهما في كنف آل الخازن. وأقل ما يقال عن صحة هذه القصة أنها غير ثابتة. والمرجح أنها محاولة متأخرة يرجع تاريخها إلى

---

(4) المصدر نفسه، ص 88.
(5) المصدر نفسه، ص 88.
(6) المعلوف، ص 91.
(7) المصدر نفسه، ص 91-92.
(8) المصدر نفسه، ص 95.

أبعد من أواخر القرن الثامن عشر لتفسير أساس العلاقة بين الأمير فخر الدين وآل الخازن وعطف الأمير على الموارنة بشكل عام»[9].

أمّا في ما يتعلق بحكم فخر الدين البلاد، «أي سلطته»، فلا يراه الصليبي ذا طبيعة واحدة. يسأل: ما هي السيطرة التي كانت لفخر الدين على المناطق المختلفة التي دخلت تحت حكمه، وهل كانت هذه السيطرة من نوع واحد في هذه المناطق؟ يجيب: «كان فخر الدين من الناحية الرسمية ملتزمًا لجباية الضرائب، لا غير، في جميع المناطق التي سيطر عليها. إلّا أن مكانته الحقيقية في المناطق الدرزية وكسروان كانت تختلف كثيرًا عنها في المناطق الأخرى. ففي الشوف كان لفخر الدين حكم تقليدي موروث مستقل تمام الاستقلال عن الالتزام الرسمي المرتبط بالدولة. وفي المناطق الدرزية الأخرى، حيث لم يكن للمعنّيين حكم متوارَث، كان لفخر الدين - بالإضافة إلى الالتزام - زعامة شخصية معترف بها على الدروز القيسية، وهي كذلك زعامة من النوع التقليدي المحلي الخارج على سلطة الدولة. وكان لفخر الدين في كسروان تبعية تلقائية بين الموارنة، ممّا جعل له في هذه المنطقة أيضًا مكانة خاصة مستقلة عن الدولة (.....)»، ويضيف: «أمّا خارج المناطق الدرزية والمارونية، فكانت سيطرة فخر الدين مجرد التزام من الدولة تدعمه قوة الأمير العسكرية»[10].

إلا أن هذا التوصيف للواقع، من خلال القراءة الدقيقة والمقارنة للمصادر، لا يمنع كمال الصليبي من إعادة الاعتبار إلى الفكرة (فكرة فخر الدين)، لكن كأسطورة (Mythe) لها دورها في أسطرة التكوّن التاريخي للبنان الحديث، «بدأت هذه الأسطورة صغيرة ثم نمت مع نمو لبنان حتى أصبح فخر الدين في نظر اللبنانيين اليوم رائد الاستقلال اللبناني ورمز الوحدة الوطنية»[11].

لكن ما يسكت عنه هذا الاستنتاج الذي يتوصل إليه كمال الصليبي في دراسته «فخر الدين والفكرة اللبنانية» (1970) هو أن اللبنانيين لا يجمعون على هذه

(9) المعلوف، ص 94-95.
(10) المصدر نفسه، ص 109.
(11) المصدر نفسه، ص 110.

الأسطورة باعتبارها صورة وطنية جامعة، أو تاريخًا وطنيًا جامعًا. وهذا ما يقودنا إلى البحث في المسألة الثانية التي أشرنا إليها: كيف يتصوّر اللبنانيون ماضيهم؟

ثانيًا: كيف يتصور اللبنانيون ماضيهم؟

هذا ما يحاول كمال الصليبي أن يجيب عنه في كتابه **بيت بمنازل كثيرة: الكيان اللبناني بين التصوّر والواقع**[12].

يستعيد كمال الصليبي صورًا من تواريخ الطوائف اللبنانية، تتناول أصولها ومواقع سكنها وأدوارها وصراعاتها السياسية، ونُبَذًا مختصرة عن خصائصها المذهبية والعَقَدية. وفي تناوله هذه الصور، يقدّم لوحة توليفية تختزل ما كان بحث فيه ووسّعه في كتاباته السابقة المتخصصة، أي **منطلق تاريخ لبنان** الذي ركّز فيه على معطيات التاريخ الوسيط (الإسلامي)، و**تاريخ لبنان الحديث**، ومقالات أخرى متخصصة في نقد المؤرخين الموارنة. لعل أهم ما في هذا الكتاب، بالنسبة إلى سياق ما نقدّمه استكمالًا لهذا المبحث، هو الفصول الآتية:

- الإمارة المتصوّرة، حيث يستعيد نقده للتصور المسيحي الماروني للإمارة، فيميز بين التصوّر الأسطوري - الأيديولوجي ومعطيات الواقع التاريخي.

- الوطن الملجأ، حيث يمارس نقدًا لنظرية الأب لامنس التي تقول بالجبل - الملجأ.

- لبنان العثماني: ما خصوصيته؟ حيث يرى أن لا خصوصية مميزة له من باقي المناطق العربية.

- انبعاث فينيقيا، النظرية التي برزت أيضًا عند بعض المؤرخين الموارنة في مرحلة الانتداب والاستقلال، وتقول بـ «الأصولية الفينيقية» للبنان، فيتناولها الصليبي بالنقد لأنها تقطع مع المرحلة الإسلامية قطعًا مفتعلًا وغير تاريخي.

---

(12) كمال الصليبي، **بيت بمنازل كثيرة: الكيان اللبناني بين التصوّر والواقع**، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة نوفل، 1990).

- التجربة والخطأ، حيث يبرز دور نخب مسيحية وإسلامية - سنية معتدلة اقترب بعضها من بعض، لتنشئ ما سيسمّى «الميثاق الوطني» الذي ما لبثت تجربته أن وقعت في أخطاء التطرف والشطط جرّاء اختراق الطائفيات والعشائريات والمحسوبيات، فكان الخلل والتفاوت في التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي أوصل إلى الحرب الأهلية في عام 1975.

يختم كمال الصليبي كتابه بفصلي «الحرب على تاريخ لبنان» و«البيت والمنازل الكثيرة» اللذين يقدم فيهما رؤيةً لكيفية النظر إلى تاريخ لبنان، تتلخص بالنقاط الآتية:

- لا يمكن لطائفة أن تفرض نظرتها إلى تاريخ لبنان على الطوائف الأخرى. تعرض هذه النقطة ثلاث تجارب طائفية فشلت في كتابة تاريخ مدرسي: تجربة إسلامية سنية قام بها أستاذان من كلية المقاصد هما زكي النقاش وعمر فروخ في عام 1935، ألّفا معًا كتابًا بعنوان **تاريخ سورية ولبنان**، جرت فيه تعرية لبنان من كل تاريخية خاصة به خارج الإطار العربي - السوري[98].

- تجربة مسيحية قام بها أستاذان، هما أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني في عام 1937، فنشرا كتاب **موجز تاريخ لبنان**، وهو «مؤلَّف بالغ في التشديد على الطابع الخاص للبنان، حتى أنه لم يكن هنالك مسلم واحد مستعد للقبول به»، كما يقول كمال الصليبي[13].

- تجربة درزية متأخرة جرت في غضون الحرب الأهلية في لبنان (في ثمانينيات القرن الماضي)، حيث اعتُمد «في مدارس الشوف السرد الدرزي الجديد لتاريخ لبنان، وحيث أجريت تعديلات في منهاج الدراسة تتفق مع الروحية السياسية للجماعة الدرزية»[14]، وكان ذلك في إثْر تحطيم تمثال الأمير فخر الدين المعني في بعقلين في عام 1983، كردّة فعل على «التمجيد المسيحي» لهذا الأخير[15].

---

(13) المصدر نفسه، ص 253.

(14) المصدر نفسه، ص 251.

(15) وإلى المحاولات التي يشير إليها كمال الصليبي، نضيف المحاولات التي جَرَت بعد اتفاق الطائف (إقرار وثيقة عام 1990) الأولى، عندما كان منير أبو عسلي رئيسًا للمركز التربوي في لبنان، =

يخلص كمال الصليبي إلى القول إنه لا بد من حملة تنظيف عامة في بيوت العناكب المنسوجة داخل البنى الطائفية والمذهبية المختلفة في البلاد، لإزالة جميع الأحكام المسبقة، والأحكام المسبقة المضادة، المتعلقة بماضي لبنان وماضي العرب. ويقصد بالتنظيف هنا نقد النظريات المختلفة التي قدّمتها الطوائف اللبنانية، أكان من وجهة نظر القومية العربية الدمجية أم من وجهة نظر القومية اللبنانية التي تسعى إلى البحث عن الخصوصية، سواءً أكان البحث في الفينيقية أم الإمارة أم في نظرية الملجأ.

يخرج من هذا النقد بثلاثة استنتاجات تتصل بإعادة النظر في التاريخ اللبناني: الأول هو أن تجربة الحرب الأهلية في لبنان أثبتت، بما لا يقبل الشك، أن أي طرف من اللبنانيين لا يمكن أن يفرض رأيه بسهولة على الطرف الآخر؛ والثاني هو أن التجربة أثبتت منذ عام 1920 حتى اليوم أن استمرار وجود لبنان كدولة مستقلة ذات سيادة داخل حدوده الراهنة أمر ممكن، وبغضّ النظر عمّا إذا كان هناك شيء اسمه لبنان قبل عام 1920 أم لا، وهذا يعني انتفاء الحاجة إلى اختراع تاريخ خاص للبنان ما قبل هذا التاريخ؛ والثالث هو أن العالم العربي أصبح يقبل بالجمهورية اللبنانية كما هي، ويفهم البنية الحسّاسة للمجتمع اللبناني، وهذا يعني أن التسليم بعروبة لبنان - إلى الحد الذي قد يكون فيه هذا المفهوم صحيحًا - ما عاد يشكل خطرًا على سيادة البلد ووحدته[16].

خلاصة موقف الصليبي من التاريخ وعلاقته بالحاضر والمستقبل هي أنه لا يمكن بناء وطن دولة على تاريخ سياسي مختلَف فيه؛ فلا بد من الإقرار بهذا الاختلاف والاعتراف به على قاعدة البحث التاريخي المؤدي إلى حقائق تاريخية، وإن تكن هذه الحقائق لا تحمل معاني الوحدة الوطنية، وهي لا تحملها أصلًا.

= وأنجزت المحاولة بعضًا من المخطط الذي اقترحته اللجنة، غير أن وزير التربية عبد الرحيم مراد أوقف العمل بالكتب التي أُنجِزَت بحجة مساس بعضها بـ «عروبة لبنان»، والثانية في عهد حسن منيمنة، حين أنجزت اللجنة مخططًا كاملًا لكتب التاريخ في المراحل الثلاث: الابتدائية والمتوسطة والثانوية. لا نعرف مصير هذا المخطط، لكن ما نعرفه هو أن المشروع تعثّر أيضًا بسبب احتجاجات حزبية مسيحية على حصر المقاومة في المقاومة الوطنية ضد احتلال إسرائيل، واستبعاد «مقاومات أخرى» من التدريس.

(16) الصليبي، بيت بمنازل كثيرة، ص 273.

وبناءً عليه، يطرح الصليبي على اللبنانيين - بوصفهم جماعة سياسية - المهمة الآتية: «عليهم أن يعرفوا بدقة من هم وما ارتباطهم بالعالم المحيط بهم. لهذا عليهم أن يعرفوا بدقة لماذا هم لبنانيون وكيف أصبحوا لبنانيين، وهم لم يكونوا في الأصل إلّا مجموعة من الطوائف المتفرقة صودف تواجدها في بقعة واحدة من الأرض. وإن لم يفعلوا ذلك - وبغضّ النظر عن الطريقة التي سيصلح بها الشجار الحالي في لبنان - فإنهم سيستمرون في البقاء مجموعة من العشائر البدائية المتنافرة أصلًا، تسمي نفسها عائلات روحية دون أن يكون لها بالضرورة أية علاقة بالروحانيات...»[17].

لكن السؤال المسكوت عنه في هذا المشروع الراهن هو الآتي: ما هي شروط «الحاضر» التي تمكّن من تصحيح الأحكام المسبقة للوصول إلى المعرفة الدقيقة (الصحيحة)، أي «العلمية»، والتي يطلبها المؤرخ كمال الصليبي من «اللبنانيين»؟ وهل يطلبها منهم كـ«طوائف» أو كأفراد ومواطنين، أو كمؤرخين من أهل الاختصاص؟ وفي الحالة الأخيرة، ما العمل إذا اختلفت المدارس والمناهج والمفاهيم بين المؤرخين أنفسهم؟

نحاول الإجابة عن هذا السؤال المركّب بتفحص الموضوع من زاويتين: زاوية المؤرخ المحترف (المتخصص)، وينطبق هذا على المؤرخ نفسه، فكيف توصل كمال الصليبي إلى هذه المعرفة التي يودّ أخيرًا تعميمها والنصح بها؟ وزاوية الثقافة التاريخية العامة، وفي هذه الحالة ما الفارق بين أن يعرف المواطن ماضيه من موقع المواطنية في دولة - وطن (دولة مواطنين)، وأن تعرف «الطائفة» تاريخها «كجماعة موحّدة»، وبأي صفة؟ أبصفتها الدينية أم بصفتها السياسية، إذا جاز التعبير؟

1- من زاوية المؤرخ المحترف: كمال الصليبي بين التاريخ التجريبي (الإمبريقي) والتاريخ المفهومي

ثمة من يطرح السؤال الآتي: في أي مدرسة من مدارس التاريخ تقع مقاربات كمال الصليبي في تناوله تاريخ لبنان الحديث؟ نستعين في الإجابة عن هذا السؤال

(17) المصدر نفسه، ص 273.

بمعطى مساعد، يتمثّل في تصريحه الذي استشهدنا به عندما طوّر رأيه في طبيعة الإمارة في الجبل: كيف حصل الانتقال لديه من المعرفة القائمة على «الاتّباع» كما يقول (أتبع غيري في الاعتقاد) إلى المعرفة المحققة القائمة على «التوسع في المعلومات عن طريق البحث وممارسة المنهج التاريخي العلمي».

يعبّر الاعتراف أولًا، وبمعيار الأخلاقيات العلمية، عن صدقية عالية وأخلاق مهنية رفيعة لدى مؤرخ كبير. ويعبّر ثانيًا عن انتماء إلى منهج يصفه بـ «ممارسة المنهج التاريخي العلمي»، وهذه الممارسة هي أداته للعبور من المعرفة التقليدية إلى المعرفة العلمية، فما هي ركائز هذه الممارسة وأبعادها؟ وما كانت ركيزتها عند كمال الصليبي وهو يمارس التأريخ للبنان الحديث؟

حين التفكير في هذا السؤال، أستحضر بعدين من أبعاد المنهج التاريخي، أو بتعبير أدق وأشمل «التفكير تاريخيًا»: أولًا، بُعد التجريبية في الممارسة التأريخية؛ وثانيًا، بُعد المفهومية في هذه الممارسة، فأي بُعد هو الغالب في ممارسة كمال الصليبي للتأريخ اللبناني (وأقصد هنا التأريخ للبنان الحديث، ولا أتطرق إلى جهد كمال الصليبي العظيم في التاريخ القديم والدراسات التوراتية، فهذا حيّز خارج عن اختصاصي أولًا، وهو مجال أعتقد ثانيًا أن كمال الصليبي أبدع فيه عالميًا، وإنجازه العلمي في هذا المجال يفوق بأهميته الإنجاز في مجال الدراسات التاريخية اللبنانية).

واضح من خلال متابعته الدقيقة للمؤرخين اللبنانيين، ولا سيما المؤرخين الموارنة، وتدقيقه في رواياتهم، ومقارنة بعضها ببعض، ونقدها من زاوية الزيادة أو النقصان، والأقدمية أو الإضافة، والقرب أو البُعد، والمعقولية أو عدمها، أن كمال الصليبي ينتمي إلى المدرسة الوضعانية التجريبية في التأريخ، وهي المدرسة التي تجعل «الحقيقة» تنطق من خلال نقد كمّ من الوثائق - أي المصادر الأولى وحدها. لكن «الحقيقة» في هذه الحال تبقى مرهونة بجهد اكتشاف مزيد من المصادر، وبتوسّع في المعلومات لا ينتهي. ومن هنا نفهم طول مسار المعرفة التاريخية التجريبية عند كمال الصليبي عندما يقول في شأن التأريخ للبنان: «كنت في السابق أتبع غيري في الاعتقاد (...) فلما توسعت معلوماتي (...)»، أي أن

معلوماته توسعت عن طريق الاطلاع على المصادر الأولى (الوثائق)، فأين يقع أو «يتموضع» الإشكال المعرفي عند كمال الصليبي؟

كان فرنان بروديل قد واجه مشكلة التوسع الكمي في الوثائق ومعلوماتها حين كتابة أطروحته الشهيرة عن المتوسط، إذ وجد نفسه أمام عدد هائل من المصادر (Les Sources) التي جمعها من أرشيفات البلدان المتوسطية، كما وجد أن الاشتغال عليها يقتضي عشرين عمرًا من حياته، أو عشرين مؤرخًا من أمثاله[18]. فكيف حلّ بروديل هذا الإشكال؟ فعل ذلك من طريق ما يمكن أن أسمّيه «ثقافة المفاهيم» التي تساعد في رسم الإطار النظري للموضوع، أي إنه أدخل البُعد الثاني، البُعد المفهومي في الممارسة التأريخية. ولا غرابة في ذلك، فهو من رواد المدرسة التاريخية الفرنسية الجديدة التي تجاوزت المدرسة التاريخية التجريبية المنهجية، ببنائها جسورًا عابرة بين الأنظمة المعرفية لعلوم الإنسان والمجتمع، إذ بنى بروديل جسورًا بين الاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة والسياسة والإثنولوجيا والتاريخ الحضاري العالمي المقارن، فأدخل مفهوم التأريخ للمدى الطويل، ومفهوم نسبية سرعة الأزمنة التاريخية بتأثير نظرية النسبية، وميّز بين الزمن الجغرافي شبه الثابت (علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية) والزمن الاجتماعي البطيء الوقع، والزمن السياسي المتسارع على السطح (التاريخ الحدثي)، فكانت النتيجة إجراء تلك المصالحة الإبيستمولوجية بين بنيوية الإثنولوجيين عند ليفي ستراوس، وبنيوية المؤرخين الجدد (الحوليات) عند بروديل، فساعد هذا البناء النظري - المفاهيمي على إعادة بناء طبقات ثلاث من الأزمنة التاريخية تقاطعت وتفاعلت في «قرن طويل» هو القرن السادس عشر المتوسطي، موضوع بردويل الذي جمع فيه ما بين الممارسة التجريبية والبناء النظري والمفاهيمي لهذا القرن.

أرجّح هنا أن هذا البُعد النظري في الممارسة التأريخية اللبنانية عند كمال الصليبي كان غائبًا، أو قليل الحضور. أدّى هذا الغياب في رأيي إلى تأخر كمال الصليبي في اكتشاف نظام الالتزام في الدولة العثمانية وانطباقه أيضًا على جبل لبنان

(18) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 4ème éd. (Paris: A. Colin, 1979).

والإمارات المحلية والأهلية فيه. فكان يمكن مثلًا الاطلاع على مفهوم الإقطاع في الإسلام، وهو غير الفيودالية في التاريخ الأوروبي الوسيط، وكان يمكن الاطلاع أيضًا على نظام التيمار في التاريخ العثماني، فضلًا عن فائدة المفاهيم الخلدونية في شأن العصبية ونشأة الدولة و«ولاية الطرف»، ومفهومي الاستتباع والولاء ما بين العصبيات، وكذلك كتب الخراج والأموال والأحكام السلطانية في الإسلام، قبل أن يكتب كتابه **تاريخ الإمارة اللبنانية**.

كان يمكن أن تشكّل المعرفة المسبقة لهذا كله مدخلًا وإطارًا نظريًا لفهم طبيعة الإمارة والأمير، لا في جبل لبنان وحده، بل في المناطق العربية كلها، وقبل انتظار «التوسع في المعلومات» الوثائقية اللبنانية أو العثمانية عند تلميذيه عدنان البخيت وعبد الرحيم أبو حسين؛ فثمة دينامية جدلية مسرّعة للمعرفة إذا ما اقترن البعدان في المعرفة: البعد التجريبي والبعد المفاهيمي.

هذا، ويمكن الإشارة، للتدليل على وفرة المراجع العالمية والعربية العامة المتعلقة بهذه الموضوعات والمفاهيم، إلى العديد منها، ولا سيما في ما يخص منها الملْكية والأرض وإدارتها وجباية ضرائبها، وعلى سبيل المثال:

- كلود كاهين، في مبحثه عن **الإقطاع في الإسلام**.

- عبد العزيز الدوري في أطروحته عن **التأريخ الاقتصادي في العراق في القرن الرابع الهجري** (صدرت في أربعينيات القرن العشرين).

- عشرات البحوث التي تناول فيها الخبراء الفرنسيون أشكال الملْكية الزراعية والسلطة والديموغرافيا في بلاد الشام في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته (جاك ولرس ولاترون وآخرون).

هذا، فضلًا عن أعمال مؤرخين أتراك لاحقين، أمثال ديفيتسيوغلو وخليل إينالجيك في أعمالهما المتعددة عن التاريخ الاقتصادي العثماني.

عربيًا ولبنانيًا، وفي إطار علاقة الصليبي بالآخرين، أجزم بأنه كان على خلق عظيم، وعلى نبل في التعامل الإنساني كبير، لكن علاقته بالإنجاز التاريخي –

العربي، وبصورة أخص بالإنجاز التأريخي اللبناني، ولا سيما المكتوب بالعربية - كانت على ما أرجح ضعيفة، ولا أدري ما السبب، فلعلها جاذبية الثقافة الأميركية السائدة في أجواء الجامعة الأميركية ذات الاعتداد بالذات وبمركزيتها الثقافية وسيادتها ومرجعيتها اللغوية العالمية. وتتجلى هذه المركزية في أكثر من مظهر ومجال، وأبرز هذه المظاهر استنكاف معظم باحثيها وأساتذتها بشكل عام عن الاستشهاد بمراجع لبنانية وعربية (باللغة العربية)، وإن يكن لهذه المراجع فضل السبق في الزمن وفي الإنجاز المعرفي.

هذه الظاهرة تنطبق، للأسف، على كمال الصليبي، ولا سيما في كتابه بيت بمنازل كثيرة؛ إذ لا يمثُل في الاستشهاد في سياق الكتاب عمّن أنجز هذه الموضوعة أو تلك من تاريخ لبنان إلّا تلامذته.

مع كل الاحترام والتقدير والمحبة لتلامذته المؤرخين الذين يستحقون فعلًا كل تقدير، فإن إغفال أسماء مؤرخين لبنانيين بدأوا بالبحث والكتابة منذ سبعينيات القرن الماضي، ثم أضحت كتاباتهم على درجة من العالمية «رغم لغتها العربية»، قد يستدعي بعض الاستغراب، بل إن اختصار دور بعضهم واختزاله في ذهنه بالعبارة اليتيمة «تلامذة دومنيك شفاليه» قد يستدعيان أكثر من استغراب[19]. حتى إني أستغرب أيضًا إغفال ما أنجزه عادل إسماعيل باللغة الفرنسية في أطروحته «نهوض الإقطاعية وأفولها في لبنان (1840-1860)»، وقد صدرت في أواخر الخمسينيات تحت عنوان Histoire du Liban: Redressement et declin du feodalisme libanais.

خلاصة القول هنا أن لا مشكلة بين مؤرخين محترفين في شأن نظرتهم إلى الماضي، فسواء توصّل هؤلاء إلى حقائق متماثلة أو مختلفة، وسواء توصلوا إلى هذه الحقائق تجريبيًا، أي عبر التوسّع التدريجي في الاطلاع على المصادر (كما فعل كمال الصليبي مثلًا)، أو عبر استخدام مفاهيم ونظريات اجتماعية وفلسفية

(19) يقول: «ولقد قام كلّ من دومنيك شفاليه وتلامذته في باريس، وليلى فواز في جامعة هارفرد، ومروان بحيري في الجامعة الأميركية بأبحاث تقدّم إيضاحات مهمة حول تطورات جبل لبنان وبيروت في القرن التاسع عشر»، انظر: الصليبي، بيت بمنازل كثيرة، ص 209.

مساعدة، فإن مقاربة الحقيقة التاريخية تبقى مسعىً معرفيًا نسبيًا، يقترب أو يصيب أو يبتعد، يتأخر أو يبطئ أو يسرع، غير أن المهم أن لا يُوظّف التاريخ في الصراع السياسي الداخلي الراهن، وأن لا تحتويه أو تسوده النظرة الأنكرونكية للأزمنة التاريخية، أي خلط زمن بزمن آخر، كالتأريخ للماضي بمصطلحات الحاضر ومفرداته وصوره، أو كالتعامل مع الحاضر بذاكرة الماضي ومخيالها.

2- من زاوية الثقافة التاريخية العامة:
وعي التاريخ بصفة مواطن أو بصفة طائفة؟

عندما يدعو كمال الصليبي «اللبنانيين» (هكذا بالجمع) إلى تنظيف بيوتهم من «العناكب»، أي من التشوهات التي أدخلتها الطوائف على تواريخها، فإنه لا يفرق - كما يبدو لي - في الدعوة بين «لبنانيين» يُفترض مبدئيًا أنهم مواطنون، و«طوائف» يُفترض مبدئيًا أيضًا أنها جماعات دينية أو إثنية لا جماعات سياسية أو أحزاب. فإلى من يوجه كمال الصليبي الدعوة: إلى اللبنانيين باعتبارهم مواطنين أم إلى «الطوائف»؟ وبأي صفة؟ بالصفة الدينية - المذهبية أم بالصفة السياسية؟

أرجّح أن كمال الصليبي يذهب مذهب التوجه إلى الطوائف بوصفها جماعات، مازجًا بين خصوصياتها الدينية والمذهبية وتطلعاتها السياسية، فيبدو أن التنظيف الذي يريده يقوم على معادلة ميثاقية (أيضًا): عروبة تهدئ من غلوها القومي الدمجي. وجرى هذا، برأيه، في التجربة اللبنانية وفي التجربة العربية حين أصبح الاقتناع بالدولة اللبنانية ضرورة لبنانية وعربية مجمعًا عليها، ولبنانية تحد من المبالغة في تمجيد خصوصيتها ذات الطابع الطائفي - المسيحي.

هي إذًا استعادة لميثاقية لبنانية نجحت خلال فترة من تاريخ لبنان المعاصر، في باب التوافق السياسي الميثاقي، ثم ما لبثت أن اهتزت بسبب أخطاء ارتُكبت (انظر فصل: التجربة والخطأ في بيت بمنازل كثيرة). فهل لهذه الميثاقية حظ نجاح أيضًا في باب «التوافق التاريخي»، أو بتعبير أدق في باب التوافق بين التواريخ (تواريخ الطوائف)؟

يبدو لي أن هذه النظرة التي تماثل بين التوافق السياسي والتوافق التاريخي، بل التي تجعل من «التوافق التاريخي» شرطًا للتوافق السياسي، تغفل معطيات وحقائق لم تؤخذ في الاعتبار:

- ضرورة التفريق بين الطوائف ذات الخصوصيات الدينية والمذهبية من جهة والطائفيات السياسية من جهة ثانية، فهذه الأخيرة تتجسد في زعامات وأحزاب ومؤسسات وسياسات من شأنها تحويل الطائفة من حالة دينية ومذهبية وثقافية إلى حالة كيان سياسي.

- ضرورة التفريق بين الذاكرة التاريخية الجماعية والمعرفة التاريخية؛ فالذاكرة الجماعية عفوية وأسطورية بطبيعتها، وخالطة للأزمنة، بل هي مخزن نفسي جماعي يُنقص الأخبار والصور أحيانًا أو يضيف إليها أحيانًا أخرى، تزيينًا أو تشويهًا. والزينة والتشويه، كما التحسين أو التقبيح، تعديلات تنشأ عبر الزمن، بفعل وطأة الحادث الراهن واستفزازاته وتحدياته واستدعاءاته التي لا تكتفي بأن يكون البشر فاعلين في الحاضر، بل مُغيّرين للماضي أيضًا، أكان في اتجاه تقبيحه أم تحسينه، تثويره أم تهدئته، بحسب حركة الجدل والصراع بين القوى التي تتلبّس الهويات المختلفة، في حين تنحو المعرفة التاريخية المحققة (العلمية) نحو الانفصال النسبي عن الذاكرة لتصبح هذه الأخيرة، وبالتدرج النسبي، جزءًا من إشتغال العقل التاريخي الناقد لها (للذاكرة).

الملاحَظ هنا أن سؤال السياسة يبقى في خضم هذا «الشيء» الملتبس بين الطائفة والطائفية، وبين الذاكرة والتاريخ، وبين الحقيقة والأسطورة، صامتًا أو مغيبًا. يُبرز لنا كمال الصليبي «حقائقه التاريخية»، ويقدّم تمنياته ونصائحه إلى اللبنانيين الذين يجب أن يعلموا «كيف أصبحوا لبنانيين منذ عام 1920» ويحذرهم من أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فسيبقون عشائر وقبائل.

حسنًا، لكن أين هو سؤال السياسة الذي يتجنّبه كمال الصليبي، وهو: من المسؤول عن التجهيل والتشويه وبناء بيوت العناكب أو إدخالها إلى منازل اللبنانيين؟ أهو لاهوت الطوائف أم علم كلامها أو فقهها؟ أم سياسيوها، ومن هم؟ أهو تاريخ الملل والسلطنات والعائلات الذي ساد خلال قرون ماضيه، أم هو

تاريخ نظام سياسي حديث ومعاصر، وأشكال محددة من ممارسة السلطة وتوزيع الثروة وسياسات زبونية محددة في الاقتصاد والتنمية والتعليم... إلخ؟

أسئلة غائبة أو مغيَّبة، لكن ما يفصح عنه التفكير التاريخي عند كمال الصليبي هو أنه يراهن على التفريق بين السياسة والتاريخ، جاعلًا نظافة البيت الأول (التاريخ) شرطًا لسلامة السياسة وصحتها. وقياسًا على هذا المنطق، يصبح شرط «تنظيف الماضي» شرطًا لنظافة الحاضر.

يبدو لي، ومهما يكن من أمر منطقية هذا التفكير - شكليًا - فالهرم التاريخي مقلوب هنا على رأسه. وما ينبغي طلبه ليس تنظيف بيوت الطوائف (أي تواريخها) ليستقيم أمر الدولة - الوطن، بل تنظيف السياسات أولًا بالبرامج والخطط لبناء دولة - وطن، وتنشئة مواطن منفتح على المعارف والثقافات كلها، ومتفهّم لخصوصيات الطوائف الدينية وذاكراتها التاريخية.

عبثًا حاولت التجارب التي يحكي الصليبي حكاياتها في كتابه بيت بمنازل كثيرة أن تنظف البيت المنشود، لأنها انطلقت كلها في رأيي من الدائرة المغلقة: دائرة الطوائف المستدخلة في الذاكرات الجماعية التي صنعتها الطائفيات السياسية عبر مؤسساتها و«مؤرخيها» وإخبارييها وسياسييها. ورأيي هو أنه عبثًا تنظيف الصورة بسياسات طائفية، أي بسياسات غير نظيفة.

الواقع أن سياسات الحاضر هي الفاعل الأول في سياسات العلم والثقافة والبحث والتربية والتثقيف، وفي التأسيس لبيئة علمية حاضنة ومشجعة لإعادة النظر في التاريخ، لدرسه والتنقيب فيه والحفر في طبقاته، لا عبر نزع قشرة ما علق به من خيوط عناكب طائفية فحسب، بل عبر كشف أحجبة وأقنعة طائفية وغير طائفية، بل أيضًا أيديولوجيا ذات أنسجة قومية أو ماركسية أو ليبرالية. عندها، ومع البيئة العلمية الحاضنة، لا يحتاج العمل السياسي ولا السياسات وبرامجها إلى تاريخ «يُؤسطَر» أو يُشوّه لمصلحة حزب أو كيان طائفي سياسي، كما أنه لا يحتاج إلى دين يُستخدم في عملية الاستقواء السياسي، ذلك أن استخدام التاريخ كصور محفزة ومستثيرة لذاكرة جماعية طائفية راهنة يماثل استخدام الدين في الاستقواء السياسي.

لذا، تبدو مطالبة الطوائف بتنظيف تواريخها بمعزل عن علمنة السياسة وتمدينها وكأنها الدوران في الحلقة المفرغة، وهي في حالة كمال الصليبي مطالبة «حكيم» معتزل ومستقيل من السياسة واسى نفسه وواسى أمثالنا ممن اعتزلوا السياسة فشلًا أو تعبًا أو يأسًا، لا «حكمةً».

كما لبيت الحكمة أو لبيت الله منازل، فإن للتاريخ أيضًا أبوابًا ومنازل. وباب تنظيفه ليس باب الطوائف، بل الباب والمنزل يمثلان سياسات حكيمة تنشد بناء دولة – وطن ودولة مواطنين. عندها، لا همَّ إن اختلفنا في الثقافة التاريخية العامة في شأن صورة فخر الدين، أكان أميرًا وطنيًا أم ملتزم ضرائب. فكما توصّل كمال الصليبي، بالتدريج وعبر البحث العلمي المتراكم، إلى أن فخر الدين ليس إلّا ملتزم ضرائب، وكان غيره قد سبقه إلى ذلك، فإن المعرفة التاريخية يمكن أن تكون حرّة ومفتوحة على جميع الأبواب، ومستضافة في جميع «المنازل». ليس الماضي سجنًا للسياسة أو راسمًا لها، وليست هي نتاجه الحتمي، وليست الذاكرة الجماعية تاريخًا ثابتًا، وإنما هي جزء من التاريخ متغير ومتحوّل، وصانع التاريخ ليس الماضي، وإنما هو سياساته في الحاضر.

الفصل الثالث

كمال الصليبي ومؤرّخو المشرق العربي

مايكل بروفنس

ترى هذه الدراسة أن كمال الصليبي ربما كان الممثل الأبرز لجيل من المؤرخين الذين تلقى معظمهم تعليمه في بيروت، وترعرع بين سنوات الانتداب الفرنسي الأخيرة وستينيات القرن العشرين. وكما فعل الصليبي، غادر كثير منهم إلى الخارج لإكمال دراسته، لكنّ تجربة الدراسة في أوروبا أو أميركا الشمالية لم تضعف الوضوح والتعاطف والتفهّم الذي نظروا به إلى تاريخ الأمكنة التي أتوا منها. ولا زالت مساهمتهم التأريخية الجماعية مادة قيّمة تتميّز بالتفصيل والدّقة على نحو إنساني يربط التجربة الحية المباشرة للدولة العثمانية وفترة الانتداب وتطلعات الاستقلال الباكرة بحياد ومِراس تأريخيين رفيعي المستوى.

أرى في هذه الدراسة أيضًا أن الصليبي، كآخرين من جيله، كانوا محصّنين، جزئيًا، ضدّ عدوى نظرية الحداثة، والتأريخ الكولونيالي، والجدالات المتنوعة في الدراسات الاستشراقية التي شَغَلت أساتذتهم في الغرب واستهلكتهم. ويبدو أن إلمامهم بالمنطقة وشعبها وصراعاتها وآمالها ساعدهم في تجاوز الجدالات العقيمة التي سادت في الجامعات الأوروبية وجامعات أميركا الشمالية التي عفا عليها الزمن الآن، وهذا كثيرًا ما جعل أعمالهم ودراساتهم أشد ديمومة وأوثق اتصالًا بالموضوع من أعمال أساتذتهم المشهورين ودراساتهم.

أولًا: التاريخ قصصًا وذكريات

عمل الصليبي على نطاق واسع، ونشر كثيرًا عن تاريخ العصور الوسطى وبدايات التاريخ الحديث والتاريخ الحديث والشرق الأوسط المعاصر والسياسة اللبنانية، والدراسات التوراتية. ولا يهدف هذا البحث إلى تحديد الحقل حيث كان للصليبي المساهمة الكبرى والأكثر ديمومة، لكني أرى بثقة، كمؤرخ حديث للمشرق العربي خلال العهد العثماني وما بعده، أن دراساته المحكّمة في التاريخ

الحديث سيُكتب لها البقاء كأعمال كلاسيكية. وسوف يتطرق بحثي هذا إلى دراسات أساسية كتبها في مراحل مختلفة من حياته المهنية الطويلة: «اضطرابات 1860 في دمشق كما رآها السيد محمد أبو السعود الحسيبي، من الأعيان ونقيب أشراف المدينة لاحقًا»، المنشورة في عام 1968؛ و«الهوية اللبنانية» المنشورة في عام 1971؛ و«سرّ البيت المعنّي» المنشورة في 1973؛ و«بيروت تحت حكم تركيا الفتاة كما صورتها مذكرات سليم علي سلام السياسية (1868-1938)» المنشورة في عام 1974؛ و«متوازيات الشرق الأوسط: سوريا - العراق - جزيرة العرب أيام العثمانيين» المنشورة في عام 1979؛ و«جبل الدروز كما يراه رستم حيدر» المنشورة في عام 2005.

تشكّل القصص والذكريات التي تُحلَّل وتُدقّق نقديًا للحصول على مزيد من المعنى والدلالة، الجوهر الحيّ لعمل المؤرخين والباحثين المُحْدَثين. وكان الصليبي سيّد الحكاية الإنسانية العظيمة التي تأتي بصورة جميلة، سواءً أوردها شفويًا أو كتابة. والحقيقة أن ذكريات مؤرخي المنطقة وعلمائها الكبار تشكّل نوعًا من أرشيف أو مستودع للتجربة، ورصد دقيق يخطئ الطلاب والباحثون، إذ يتجاهلونه أو لا يقدّرونه حقّ قدره. يقدّم الصليبي أنموذجًا يُحتذى به عن الواجب المهني الذي يقتضي الاستماع إلى - واستيعاب - قصص الماضي التي يرويها كبار المؤرخين، وأناس يختزنون ذكريات يريدون مشاركتها مع الآخرين. لم تكن القصص التي كان يرويها أمورًا اختبرها، بل سمعها ممن هم أكبر منه سنًا، في أعوام طفولته في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته. لم يكن الصليبي وأغلبية باحثي جيله مهتمين بالترويج لأنفسهم، بل كان دومًا شديد الحفاوة والكرم لمن يقصده.

كان للصليبي مساهمته الراسخة في التاريخ التفصيلي المحدّد القائم على المذكرات. فذلك التاريخ الذي كان الصليبي من روّاده منذ بداية حياته المهنية، وبقي يمارسه طوال حياته، هو العلاج القويّ الناجع - على الرغم من أنّه لا يلقى ما يستحقه من تقدير - لعيوب تأريخ الشرق الأوسط الحديث المعروفة والمتنوعة التي تسير على خط الاستشراق، أو ما يمكن أن نسمّيه «تأريخ الافتقار إلى». وتبعًا لهذا التقليد المعتاد في القرن العشرين، وُسِم الشرق الأوسط وتاريخه

وأناسه بما يفتقرون إليه، مقارنة بأوروبا وأميركا الشمالية. وهذا يشمل في التراث الاستشراقي، عادةً، قائمة الأمور غير المفقودة الآتية: الحداثة، الهوية القومية، السياسة المرتبطة بالطبقة، الوعي السياسي المبني على المصالح المحدّدة عقلانيًا، على اعتبار أن ذلك معاكس للعقيدة الدينية الأبدية. وتطول قائمة الأمور المفتقدة المزعومة الأخرى لتشمل حقوق الفرد والديمقراطية والحكم التشاوري، وحتى التغيّر التاريخي نفسه.

تخطّى الصليبي مباشرةً، ومنذ أعماله الأولى، هذه النزعات التأريخية. وعلى الرغم من زمانه وتدرّبه في لندن على يد أكثر العلماء المستشرقين تقليديّة، تجاهل تمامًا ذلك الميل الموجود في حقلنا نحو النزعة الدفاعيّة كنقيض للنزعة الوصفية. وسرعان ما شحذ همته وحافظ على استعداده الكامل لتقبّل الأفكار والنتائج والأدلة التي قد تأتي عكس ما يتوقّع. كما كان الصليبي استثنائيًا في استعداده لمراجعة بحوثه السابقة بكل سرور، دائم التشبث بالحقيقة وتوخّي الدقّة حيثما قاده ذلك، بدلًا من الميل الشائع إلى الدفاع عن أعماله السابقة، حتى حين تطعن الأدلّة والحوادث ما كتب. ولم يكلّف نفسه قطّ عناء طرح الأسئلة الزائفة من طراز «ما الخطأ الذي حصل؟»، بل كان يركّز دائمًا على السؤال الأكثر كشفًا وقيمة: «كيف غدت الأمور على ما هي عليه؟».

كان الصليبي الممثل الرئيس لما يمكن اعتباره المدرسة الخاصة للجامعة الأميركية في بيروت في البحث التاريخي المتعلق غالبًا بالشرق الأوسط الحديث. وحتى قبل أن يقود ألبرت حوراني الاهتمام الأوروبي بتاريخ الشرق الأوسط الحديث، بوصفه موضوعًا يستحق الدراسة، أصرّ الصليبي وزملاؤه ومعلّموه، وبينهم وليد الخالدي وحنا بطاطو وزين نور الدين زين وفيليب حتي وقسطنطين زريق وأسد رستم وآخرون، بهدوء لكن من دون هوادة، على دراسة المنطقة وأهلها وتغيراتها عبر الزمن، وفقًا لشروطهم، وبطريقة تشبه إلى حدّ كبير مقاربة مؤرخي الأمكنة والأزمنة الأخرى لموضوعاتهم. ويبدو أن ذلك سِمة التاريخ الذي يكتب في الجامعة الأميركية في بيروت، وهذا ما لا يستطيع فهمه أو تقديره حق قدره على الدوام من يعملون في أوروبا وأميركا.

كثيرًا ما نظر مؤرخو الجامعة الأميركية في بيروت إلى تاريخ منطقتهم وفق شروطهم، لا وفق شروط مكان آخر أو تقليد تأريخيّ آخر، أو مقارنة معه، أو بفعل تأثيره. ويبدو أن الصليبي سبق زمنه بعقود على هذا المستوى وعلى كثير غيره من المستويات.

ثانيًا: الصليبي المنقّب البارع

اشتُهر كمال الصليبي بكتبه الكثيرة؛ أبرزها تنقيبه البارع في التأريخ اللبناني الحديث والأسطورة القومية في مؤلّفه **بيت بمنازل كثيرة** الذي اعتُبر، على نطاق واسع، أفضل كتاب كُتب عن لبنان على الإطلاق. لكن الصليبي كتب أيضًا عشرات الدراسات المهمة خلال حياته المهنية الطويلة، وكان فخورًا بها كلها، وما زال كثيرٌ منها دفين كتب أعمال مؤتمرات نفدت منذ زمن، وسوف يحظى الباحث الذي يعثر عليها صدفة أو قصدًا بكنز ثمين.

في عام 1965، نشر الصليبي مؤلّفه **تاريخ لبنان الحديث**. وكان قد نشر من قبل أطروحته المنقّحة، المُعدّة في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن، تحت إشراف برنارد لويس، في عام 1959 **المؤرخون الموارنة وتاريخ لبنان في العصور الوسطى**.

في تشرين الأول/ أكتوبر 1966، شارك الصليبي في مؤتمر جامعة شيكاغو الذي جمع أبرز باحثي الشرق الأوسط آنذاك، وكان حينها في السابعة والثلاثين من عمره، أصغر بجيلٍ من أستاذه لويس، ومن بعض المؤرخين المعروفين الحاضرين مثل ألبرت حورانيّ أو جاك بيرك أو شارل عيساوي الذين ولد معظمهم في حقبة الحرب العالمية الأولى ونهاية الإمبراطورية العثمانية. وكان من الواضح أن مقاربته للتاريخ تختلف كليًا عن مقاربة أسلافه وأقرانه.

استمدّ كتاب المؤتمر ذيوعه من دراسة حوراني الشهيرة «الإصلاح العثماني وسياسة الأعيان» التي توافقت إلى حدّ كبير، وعلى الرغم من مزاياها الجمّة وألمعيتها التفسيريّة، مع الموضوعات التركيبية والعمومية التي تطرّق إليها الكتاب. وخلافًا لذلك، كرّس الصليبي صفحات بحثه لتناول اضطرابات عام 1860 في

دمشق تناولًا دقيقًا ومفصلًا، تحت عنوان «اضطرابات 1860 في دمشق كما رآها السيد محمد أبو السعود الحسيبي، الوجيه ونقيب أشراف المدينة لاحقًا».

استند الصليبي في دراسته إلى مخطوطة منسيّة عثر عليها وصديقه المؤرّخ السوري الكبير والمعاصر عبد الكريم رافق في المكتبة الظاهرية في دمشق. وتروي الحواشي قصةً فاتنة كتلك التي ترد في المتن عن مؤرخين يافعين ينهلون بنهم روائح المدينة العظيمة وتاريخها ومشاهدها ومذاقاتها. ومن الواضح أن رافق والصليبي أمضيا أيامهما في المكتبة يستكشفان كنوزًا مخبوءة، وقضيا أوقات الظهيرة والمساء يجوبان حارات المدينة القديمة ليتعرّفوا إلى معالم المدينة ومَحالها ومبانيها التي ذُكرت في المخطوطات التي انكبّوا عليها في أثناء النهار. وبهذا، كما بأشياء أخرى، تقدّم دراسته أنموذجًا لتاريخ اجتماعي مصغّر، يبدو أنه استبق توجّهات ثمانينيات القرن العشرين التأريخية.

يكمن غِنى دراسة الصليبي في استحضارها عالم محمد أبو السعود الحسيبي أدبيًا. شَهِد الحسيبي، وهو أحد أفراد عائلة دمشقية مرموقة، الحوادث، وعوقب جرّاء دوره فيها، ودوّن تجاربه وانطباعاته ومبرراته بعد ذلك بفترة قصيرة في مخطوطة وصفها الصليبي بأنها «مزيج من لهجة دمشقية وعربية ملحونة، بخطّ لا يكاد يُقرأ»[1]. لكن أوجه القصور هذه في مخطوطة الحسيبي لم تقف حائلًا أمام تقديم صورة مفعمة بالحياة لدمشق. بيد أن الصليبي مضى أبعد من ذلك في رواية لا نظير لها عن التحوّلات الزلزالية التي أتت بها التنظيمات إلى النظام الاجتماعي والحضاري الدمشقي، والمساواة القانونية الجديدة لغير المسلمين العثمانيين، ودخول قناصل القوى العظمى إلى الحياة اليومية. كان واضحًا في رؤيته أن حوادث 1860 نتجت من الاضطرابات الاجتماعية التي جلبتها التنظيمات، وأن الضرورات التحديثية للتنظيمات والدولة المركزية الآخذة في التطور هي التي أملَت الردّ القاسي الذي تضمّن إعدام 172 مسلمًا دمشقيًا بأمر من وزير الخارجية

(1) Kamal Salibi, «The 1860 Upheaval in Damascus as Seen by Al-Sayyid Muhammad Abu'l-Su'ud al-Hasibi, Notable and Later Naqib al-Ashraf of the City,» in: William R. Polk and Richard L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century* (London and Chicagom, IL: University of Chicago Press, 1968), p. 187.

العثماني فؤاد باشا[2]. ودراسة الصليبي عرض مفصّل لكِلفة الحداثة العثمانية في الولايات وتبعاتها، وقد تفوّقت تفوقًا كاسحًا بدقّتها وتفصيلاتها ودوام أهميتها على عمل أشهر من أعماله، لأستاذه السابق برنارد لويس.

في عام 1971، نشر الصليبي دراسة في دورية أكاديمية بعنوان «الهوية اللبنانية». كُتبت، على الأرجح، في فترة اتفاق القاهرة في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969، بين رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات وقائد الجيش اللبناني إميل البستاني. ولم تحو هذه الدراسة، التي لا بدّ من أنها اقتُطعت من محاضرة، أي حواش بل كان لها طابع الحديث السلس. ومع ذلك، حدّدت هذه الدراسة بوضوح المشكلات الجوهرية في التأريخ والهوية اللبنانيين، وشدّدت على التوترات والانشقاقات التي كان من شأنها أن تمزّق البلد بعد خمس سنوات. وتُمثّل المقالة محطّة مهمة، لكنها في الأغلب منسيّة، للوقوف على رحلته الشخصية والثقافية من الفرادة اللبنانية في كتابه **تاريخ لبنان الحديث** 1965، مرورًا بسنوات الحرب الأهلية، إلى تنقيبه البحثيّ الناضج في الهوية والتأريخ اللبنانيين في **بيت بمنازل كثيرة**، الصادر في عام 1988.

تُظهر الدراسة الصليبي بمظهر المتفائل، صاحب النظرة الثاقبة والثقافة الإنسانيّة الرفيعة، مدركًا تمامًا مآزق السياسة وحماقات السلوك البشري، وآملًا الأفضل. والأمر الجدير بالملاحظة في الدراسة أيضًا هو أنها تُظهر أن الصليبي رفَض مجموعة من الأساطير الزائفة التي تحوم حول الهوية والتاريخ اللبنانيين بعدما أشبعها فحصًا.

ثالثًا: أصولية فينيقية في لبنان

غاص الصليبي عميقًا في مفهوم الأصول الفينيقية الشائع بين اللبنانيين الموارنة، وكشف زيفه، شأنه شأن الادّعاء المرتبط به أن لبنان جزء من «حضارة

(2) Kamal Salibi, «Beirut under the Young Turks as Depicted in the Political Memoirs of SalÝm ᶜAlÝ SalÝm (1868-1938),» in: Jacques Berque et Dominique Chevalier, eds., *Les Arabes par leurs archives (XVIème - XXème Siècles)* (Paris: CNRS, 1976), p. 197.

غربية» ذات تعريف إثنيّ دينيّ. كذلك رأى أن ولاءات كثير من اللبنانيين العروبيّة متجذرةٌ في التاريخ، لكنها تشكّل خطرًا على سيادة لبنان واستقلاله عن جيرانه العرب الأكبر والأقوى. كما استبق فهمه النقدي لتشكّل الأيديولوجيات القوميّة ظهورَ أعمال معروفة لكتّاب مثل بندكت أندرسن، بعشرات السنين. وأشار الصليبي أخيرًا إلى أن فكرة الهوية اللبنانية كملجأ إقليمي للمسيحيين وآخرين غير قادرة أيضًا على توحيد أهل البلد خلف فكرة واحدة، أقلّه، من منظور عام 1969، لأن الفلسطينيين المسلمين كانوا أكثر من يحتاج إلى ملجأ.

عرّى الصليبي التناقضات والمصاعب التي واجهت اللبنانيين الذي سعوا إلى دولة موحّدة، وكشف لاحقًا عن دور الرهبان والسياسيين الفرنسيين والسياسة الكولونيالية الفرنسية في ولادة لبنان في كتابه بيت بمنازل كثيرة[3]. وأكملت تلميذته كارول حكيم هذا الجدال وطوّرته في كتابها أصول الفكرة القومية اللبنانية الذي نُشر بعد وقت قصير من وفاته. ويُنهي الصليبي الدراسة بإشارته إلى أن العواصف والأزمات التي خاضها اللبنانيون معًا ونجوا منها شكّلت رابطهم المركزيّ المشترك؛ وهي عبارةٌ كثيرًا ما ردّدها آخرون بعد عقود من انتهاء الحرب الأهلية.

في عام 1973، نشر كمال الصليبي دراسته «سرّ البيت المعنّي»[4]، التي تصدّت، على نحو تفصيلي، لأساطير الأصول اللبنانية وافتُتحت بالآتي: «في أوائل تسعينيات القرن السادس عشر، عُيّن زعيم مغمور من منطقة الشوف الدرزية، في البرّ الداخلي الجبلي لصيدا، ملتزمًا (جابي ضرائب زراعية) في جبل الدروز برمّته». وفي هذه الدراسة، واصل الصليبي عادته في طرح أسئلة صغيرة تحمل دلالات تأريخية كبيرة. ومنذ أواخر ستينيات القرن العشرين، كتب وألقى محاضرات عن التاريخ اللبناني والإقليمي في القرنين التاسع عشر والعشرين، لكنه كان في الوقت عينه منهمكًا في بحث إبداعيّ ومُبتكر عن التاريخ المملوكي والعثماني الباكر في

---

(3) أنجز كمال الصليبي كتابه بعنوان بيت بمنازل كثيرة، لكن عمل تلميذته كارول حكيم ذهب به أبعد وبإدانة أكبر لطموحات الاستعمار الفرنسي وعنصريته الاستشراقية. انظر: Carol Hakim, *The Origins of the Lebanese National Idea, 1840-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 2013).

(4) Kamal S. Salibi, «The Secret of the House of Ma'n,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 4, no. 3 (July 1973), pp. 272-287.

بلاد الشام، ولا سيما الروايات عن الأسرتين المعنيّة والشهابية في جبل لبنان بين خمسينيات القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن الثامن عشر.

تحلّ دراسته «سرّ البيت المعنّي» لغزًا علميًّا كان مجهولًا في السابق، وتكشف زيف تأكيدات عدد من المؤرخين البارزين، إذ تزيل الوَهم والأسطرة عن أصول «مؤسسي» لبنان الأسطوريين، وتُعيدهم إلى مكانهم الأكثر دقّة، باعتبارهم ملتزمين عثمانيين وزعماء ريفيين استغلوا تغير الأحوال المحلية واضطرابها وانتفعوا من ذلك. يوضح الصليبي أن إبراز تأريخ أسرة واحدة في لبنان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحاجات الظرفية لروايات القرن العشرين القومية، ولا علاقة له بديناميات القرنين الخامس عشر والسادس عشر السياسية. أسس المعنّيون، الذين اجتهد الصليبي في تقديم صورة عنهم، لبنان عن طريق المصادفة، وما كان لديهم أدنى فكرة أنهم سيُذكرون يومًا بوصفهم مؤسّسي لبنان، إذ كانوا منغمسين في الأولويات السياسية المعتادة من الدفاع عن النفس والتوسّع وعقد التحالفات المفيدة مع الأسر الأقوى والسلاطين العثمانيين وآل ميديتشي.

من جهة أخرى، بات كثير من منافسي المعنيين الإقليمين طيّ النسيان اليوم، غالبًا لأنّ أحدًا لم يعتبرهم مؤسّسي هذه «الأمة» أو تلك. ويقتفي الصليبي مصائر فرع منسيّ من المعنّيين ليقدّم وجهة نظر قوية عن أهمية الطوارئ التاريخية، وينهي الدراسة بإشارة إلى أننا نادرًا ما نتذكّر المهزومين في التاريخ[5].

رابعًا: الموضوع الإنساني محور التاريخ

في عام 1974، قارب الصليبي مدينة بيروت في أواخر العهد العثماني مقاربة تاريخية جزئية دقيقة. وفي العام نفسه، نظّم جاك بيرك ودومينيك شوفالييه مؤتمرًا في باريس بعنوان «العرب في محفوظاتهم» (Les Arabes par leurs archives). لم

(5) الاقتباس الدقيق هو: «مثل غيرهم من المهزومين في التاريخ، بقي ذكر آل علم الدين من العائلة المعنية مقتصرًا على الشرور بعد 1711؛ لو أنهم نجحوا، لربما ظلّوا في الذاكرة كمحسنين». انظر: المصدر نفسه، ص 287. في هذا والكثير مثله، سبق الصليبي بعقود التوجهات التأريخية مركّزًا على الخاسرين والمنسيين.

تكن مجموعة المشاركين تقلّ تميّزًا عن المجموعة التي التقت قبل بضع سنوات في شيكاغو، وضمّت ألبرت حوراني وفرانسوا فوريه وكلود كاهن وأندربه ريمون ومكسيم رودنسون وألكسندر شولش وعبد الكريم رافق. وفي هذه المرة أيضًا، كان الصليبي ضمن المشاركين الأصغر سنًّا.

كان رافق، الذي ساهم بأهمّ دراسة كتبت عن حال السجّلات القانونية والتنظيمات الحرفية في دمشق القرن الثامن عشر، أشار إلى استعلاء الصليبي مباشرةً على قواعد المؤتمر وتوجيهاته، مثيرًا حنق منظّميه. ففي حين كتب المشاركون دراسات تركّز على المحفوظات والبحث العلمي وحال ميدانهم، عاد الصليبي مجدّدًا إلى التاريخ الجزئي الشخصي التفصيليّ الذي يسلّط الضوء ببراعة على مكانٍ وزمان ما. وعلى عادته، جعل الموضوع الإنساني محور القصة، وركّز على حياة وعصر رجل أعمال وسياسي وزعيم أهلي بيروتي بارز في بحثه «بيروت في ظل تركيا الفتاة كما صوّرتها مذكرات سليم علي سلام (1868–1938) السياسية».

أشار رافق إلى أن الصليبي كان انتُقِد لاستخفافه المعتاد، لكنه كان رابط الجأش وواثقًا بحقّ من أنه كتب دراسة مهمّة، تبقى كلاسيكية ومصدر فخر مبرَّر لكثير من ذريّة سليم علي سلام من أصحاب الإنجازات، وبينهم حفيده، رئيس الوزراء اللبناني تمّام سلام.

كان أبو علي، كما عُرِفَ على نطاق واسع، موضوعًا جديرًا بالاستقصاء التاريخي، لكنّ الدراسة سلّطت الضوء على أكثر بكثير من حياته نفسها. فخلال مناقشة حياته التي امتدت سبعين عامًا، استغل الصليبي الفرصة أشد الاستغلال ليروي قصة بيروت كما تطوّرت من بلدة ساحلية صغيرة أقلّ أهمية من طرابلس أو صيدا أو عكّا، إلى أهمّ ميناء ومدينة تجارية على ساحل المتوسط العربي العثماني، مُنهيةً القرن التاسع عشر بتعداد سكاني يصل إلى 120 ألف نسمة، أي أكثر بنحو عشرين ضعفًا من عدد السكان الذين أقاموا هناك في بداية القرن.

أرّخ الصليبي بمحبّة التغيرات التي طرأت على المدينة على مرّ عقود حياة أبي علي. تحوّلت كثبانها الرملية إلى بساتين، وبساتينها إلى أحياء حضَرية كالمصيطبة،

الحيّ الرئيس حيث ما زال منزل سلام قائمًا حتى اليوم. ابتاع علي سلام، والد سليم علي سلام، المنزل ونقل عائلته إلى هناك بعد فترة قصيرة من ولادة ابنه الأكبر في عام 1868. وسّع علي سلام المنزل وأضاف إليه طبقتين عُلويتين، فطغى البيت الكبير على مشهد الحيّ، وهو لا يزال قائمًا حتى الساعة، مُحافَظًا عليه بعناية، خصوصًا في عهد رئيس الوزراء اللبناني تمام سلام، لكنه صار محاطًا بالمباني السكنية من كل جانب[6].

عرض الصليبي لصداقات وشراكات أعمال وزيجات أبرز مواطني بيروت في حقبة التغيير غير المسبوقة تلك. وإلى جانب استفادتها من فرص النمو التي انفجرت بغتة في بيروت، كانت عائلة سلام غير اعتيادية في تواصلها مع محلّتها ومواطنيها العاديين، وفي نظرتها التقدميّة المستنيرة. وقال الصليبي إن عائلات ثرية أخرى تخلّت عن أحيائها الأصليّة، وانتقلت إلى أحياء مرموقة جديدة لتكون مع أندادها الاجتماعيين، بينما حافظت على «تحيّزاتها ومحظوراتها الموروثة»[7].

امتدت حياة أبي علي على مدى أواخر الحكم العثماني والحرب العظمى والاحتلال البريطاني والوحدة المحتملة مع دمشق تحت حكم الملك فيصل، ومعظم سني الانتداب الفرنسي. عاش حتى عام 1938، لكن مذكراته توقفت في الشهور التي سبقت هزيمة العثمانيين وانهيارهم، في أواخر عام 1918.

تبقى دراسة الصليبي، ومركزية حوادث سنوات العثمانيين الأخيرة التي شظّت العالم بالمعنى الحَرفي للكلمة، بلا نظير في حيويتها ودقتها. فهي تحفة تُظهر صلابة النظام العثماني في بيروت ووَهنَه الذي لم يكن بالإمكان مواصلة دعمه، وتخلو من أنموذج صناعة الأسطورة القوميّة الذي انتهجته تواريخ المناطق العثمانية التي كُتبت في ذلك الحين. ويختتم الصليبي دراسته: «لم يخلِّف أيّ سجل عن الأعوام العشرين الأخيرة من حياته المميزة»[8].

---

(6) Salibi, «Beirut under the Young Turks,» p. 196.

(7) المصدر نفسه، ص 198.

(8) المصدر نفسه، ص 215.

خامسًا: عودة الصليبي إلى اهتماماته الأولى

كثيرًا ما انخرط كمال الصليبي بشكل كامل في حياة المنطقة فكريًا، تمامًا كما انخرط في حياة أوروبا وأميركا. وفي نهاية العام نفسه، أي 1974، حضر الصليبي المؤتمر الأول لما سيصبح منذ ذلك الحين تقليدًا تنظّمه جامعة الأردن عن تاريخ بلاد الشام.

في عام 1979، نشر في إحدى المجلات الدراسة التي شارك بها في المؤتمر، وعنوانها «متوازيات الشرق الأوسط: سوريا – العراق – جزيرة العرب في العهد العثماني»، استهلّها بالإشارة إلى أن البلدان العربية، قبل ظهور الدول الحديثة، كانت تُدرس على أساس مدنها المنفصلة، بينما يتم تجاهل الريف ومناطق الوسط. ثم يصطحب الصليبي القارئ في رحلة مختصرة وحميمة في الجغرافيا الطبيعية من الجزيرة العربية حتى جبال طوروس. يكتب: «إن التنوع في خريطة منطقتنا الطبيعية محيّر بالفعل. لكن ذلك لا ينبغي أن يُعمينا عن حقيقة مفادها أن مناطق سوريا والعراق والجزيرة العربية المختلفة متّصلة بعضها ببعض، لتشكّل معًا وحدة جغرافية طبيعية وإنسانية»[9]. وتكمل الدراسة في أسلوب حواريّ، ومجددًا من دون حواشٍ، كي تصوغ على نحو مفهوميّ الموضوعات التاريخية التي توحّد المنطقة في حقبة مابعد الفتح العثماني.

نشر الصليبي كثيرًا عن صعود الأسر الحاكمة اللبنانية وسقوطها، وطبّق أنموذجه ورؤاه المحطمة للأوثان على مناطق أخرى من الشرق العربي. كما صوّر بإيجاز تلك الأسر الحاكمة التي انبثقت، ثم توارت عن الأنظار، وأصبحت، في حالات قليلة معزولة وعارضة، أسرًا حاكمة لدول القرن العشرين. وأشار من جديد إلى أن الأسر الحاكمة التي ظهرت من المجهول وازدهرت ثم تلاشت تدريجًا كانت أكثر من العائلات القليلة مثل آل سعود أو خليفة أو شهاب التي سادت وما زالت معروفة وقائمة في الذاكرة حتى اليوم. ومجددًا، يطبق الصليبي

(9) Kamal S. Salibi, «Middle Eastern Parallels: Syria-Iraq-Arabia in Ottoman Times,» *Middle Eastern Studies*, vol. 15, no. 1 (January 1979), pp. 70-81.

حلًّا تأريخيًا فاعلًا للأساطير والروايات القومية للمناطق والدول العربية المختلفة، محاججًا بأنّ تعدد الأسر المتنافسة كان عنصرًا مشتركًا في جميع أنحاء المنطقة. ويشير إلى أن الفارق بين تلك العائلات التي شكّلت الدول الحديثة وتلك التي اختفت يستحق المزيد من الدراسة، لكن فكرته الأساس تكمن في أن كثرة الأسر الحاكمة المناطقية في الحقبة العثمانية هي القاسم المشترك لتلك الفترة والمنطقة. ويقترح أن تاريخ الحقبة الحديثة في الشرق الأوسط تكمن في القواسم المشتركة بين هذه الأسر، وربما تدين تلك الأسر التي نجت وسادت عقب نهاية الحقبة العثمانية باستمرارِ وجاهتها الأحوال خارجية. وبشكل أقلّ مراعاة وكياسة، يقول إنَّ التقاربُ العارض بين حفنة من الأسر المعروفة وقوى القرنين التاسع عشر والعشرين الأوروبية الإمبريالية هو الذي يفسّر أهميّة آل سعود وآل خليفة وآل الصباح وغيرهم.

في أوائل القرن الحالي، عاد كمال الصليبي إلى اهتماماته وموضوعاته الأولى، مركزًا على مغامرات رستم حيدر في الحرب العالمية الأولى، وهو رجل دولة عثماني عربي أتى من بعلبك، الواقعة بين بيروت ودمشق راهنًا. أثار حيدر اهتمام الصليبي للأسباب نفسها التي أثار سلام اهتمامه: كان مثقفًا كوزموبوليتانيًا ذا نظرة تقدمية. تلقّى تعليمه في اسطنبول وباريس، وشارك بعد الحرب في مؤتمر باريس للصلح كمستشار للملك فيصل. وفي أثناء هربه من السلطات العثمانية خلال الحرب، وفي طريقه إلى الانضمام إلى فيصل خلف الخطوط البريطانية في فلسطين، حلّ رستم حيدر وجماعته ضيوفًا على بعض المشايخ الدروز في قرى جبل حوران التي تبعد نحو 100 كلم جنوب دمشق، شمال الحدود الأردنية اليوم.

ألّف حيدر إثنوغرافيا أبدى فيها إعجابًا بدروز حوران مع شيء من الاستغراب اللطيف، وهي إثنوغرافيا تتلاقى مع ميل الصليبي إلى الوصف اللاذع. لا تقتصر قيمة دراسته على تبصرها الحياة والسياسة في برّ دمشق الداخلي الريفي في إثر انتهاء الحرب، بل تتجاوز ذلك إلى عرض الهوّة السحيقة بين زوّار من العالم المتقدم ومضيفيهم الدروز القرويين. كان حيدر مفتونًا بالعادات والضيافة الريفية

وحائرًا في أمرها، ولا بدّ أنه ارتكب أخطاء فادحة إذ يشير إلى أنه حاول، في أوائل أيام إقامته هناك، أن يدفع مالًا لمُضيفه، فصدّوه بتهذيب. كما ذُعر وانتفض حين قدّم مضيفه القهوة للضيوف وأفراد الأسرة فردًا فردًا من دون أن يغسل الفنجان على الرغم من أنه لامس عشرين فمًا[10]. كما أُعجب رستم بتقاليد تناول دروز حوران العشاء الجماعي وحماستهم للموسيقى والرقص والغناء، وولعهم بالقصائد العربية باللغة المحكيّة وتلاوة الشعر. ولم يجد حيدر في ممارسات دروز حوران الاجتماعية ما يميّزهم من البدو، على الرغم من أن الدروز كانوا مزارعين يقطنون بيوتًا حجرية.

ألّف الصليبي دراسته هذه مستندًا بشكل كامل إلى مذكرات حيدر طوال سنوات الحرب، وأُدرجت في كتاب حرّره ونشره برعاية مؤسسة التراث الدرزي التي موّلت مؤتمر أكسفورد الذي سبقها. وهذه الدراسة لمحة أخّاذة عن لحظة ما في نهاية الحرب العظمى، وعن مجتمع دروز حوران، ومكانة رستم حيدر ونظرته عشية دخوله المسرح العالمي.

سادسًا: باحث أدرك قيمة روايات البشر الشخصية

في شباط/ فبراير 1919، حضر رستم حيدر مؤتمر الصلح في باريس، وصار وهو في الثلاثين من عمره مستشارًا مهمًّا وموظفًا حكوميًا في حكومتي فيصل في دمشق وبغداد، واغتيل في بغداد في عام 1940، وكان حينها في الخمسين. تحدث حيدر الفرنسية بطلاقة، ونجد في السجلات نقده الحاد لتسويات الشرق الأوسط لحظة تصورها. وفي خلال واحدة من أولى جلسات المؤتمر التي كان رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو والرئيس الأميركي وودرو ويلسون يرئسانها، وجه إليهما خطبة قال فيها: «ما معنى كلمة انتداب؟ لا نعرف على وجه التحديد. لكن يتوقف على تفسير هذه الكلمة مستقبل الأمم التي ما زالت ترزح تحت نير الطغاة إلى اليوم... لا أودّ الآن إلا أن أقول إن الشعوب التي أتحدّث باسمها تعتزم

(10) Kamal Salibi, «Jebel Druze as Seen by Rustum Haydar,» in: Kamal Salibi, ed., *The Druze: Realities and Perceptions* (London: Druze Heritage Foundation, 2005), p. 131.

البقاء حرّة في اختيار السلطة التي سوف تطلب نصيحتها. حقها في تقرير مصيرها في المستقبل أمرٌ معترف به في المبدأ. حسنًا! لكن اسمحوا لي أن أقول، أيها السّادة، إن ثمة اتفاقًا سريًا للتخلص من هذه الأمم عُقد، من دون العودة إلينا. أسأل المجلس إذا كان يجب أن تكون الأمور على هذا النحو أم لا»[11].

تجاهل كليمنصو خطبة حيدر، وواصل معالجة مسألة إجرائية بسيطة قبل أن تُقفل جلسة ذلك اليوم. كان حيدر، قبل أشهر فقط، يحرّض السوريين على التمسّك بوعد الاستقلال تحت حماية البريطانيين، وعلى التخلّي عن الدولة العثمانية، إلّا أنه سرعان ما أدرك في باريس وبحضور زعماء القوى العظمى أن الاستقلال غير وارد، وأن مسألة تحديد معنى الانتداب ورسم معالمه تعود إلى القوى المنتدِبة نفسها. كان ويلسون الذي شهد الخطاب أيضًا، نتاجَ الجنوب الأميركي المعزول، وكان معتادًا الترتيب الهرمي الاستعماري في تصنيف البشر، حيث يمكن لمن يعود نسبهم إلى دول شمال أوروبا تقرير مصائر الشعوب الأقل تطورًا. وبالطبع، لم يكن ليفهم شيئًا من خطاب يُلقى بالفرنسية، أو بأي لغة أخرى غير الإنكليزية.

من الواضح أن الصليبي اختار أن يتناول أهمية رستم حيدر التاريخية غير تناوله أهمية أبي علي سلام أو محمد الحسيبي، لأنه حين شرع في الكتابة عن حيدر وحقبته، تقاعد من التدريس ليتنقل بين عمّان، حيث شغل منصب المدير المؤسس للمعهد الملكي للدراسات الدينية، وبيروت حيث أمضى سنوات تقاعده. كما كان منهمكًا في تصحيح كلّ بحث في مؤلفه وتحريره.

في هذه المادة، إذًا، لمحة من تواريخه الجزئية الدقيقة المستندة إلى المذكرات. وهو يترك القارئ راغبًا في معرفة المزيد عن رستم حيدر، ومشايخ دروز حوران الذين غمروه بضيافتهم، والعالم الذي كانوا يقطنونه عند نهاية الحرب، وانهيار النظام العثماني، وبزوغ فجر قرن جديد زاخر بالإمكانات. لم يشعر الصليبي بأي دافع خاص لإشباع الفضول الذي أثاره، وكان سعيدًا لتقديمه مفاتيح قيّمة للمؤرخين المستقبليين كي يتّبعوها، كما فعل طوال حياته المهنية. وكان مشجِّعًا على الدوام،

---

(11) British National Archives, Foreign Office [FO] 371/4310, Preliminary Peace Conference, Session of 14 February1919.

وبعيدًا عن التملك، أو القطعيّة. وختم الصليبي دراسته عن رستم حيدر: «منذ تلك اللحظة أصبح الحدث الدرزي وراءه ولم يعد البتة، على ما يبدو، إلى زيارة الجبل ثانيةً»[12]. وبطبيعة الحال، لطالما كان الصليبي أول من اقترح أن يستأنف شخص آخر ما سَبَقَ أن قام به، وينقّح موضوعه!

عُرف كمال الصليبي بحقّ بكتبه عن تاريخ لبنان والشرق الأوسط. وأشار بحثنا هذا إلى أن دراساته الكثيرة هي أيضًا موضع تقدير، ولها قيمتها الجلية، وأنها تمثّل مساهمةً رائدة لن تتكرر، وستبقى أساسيّة بالنسبة إلى الباحثين المستقبليين؛ إذ تظهره تلك الدراسات باحثًا أدرك قيمة روايات البشر الشخصية حين كان مثل هذا الإدراك أمرًا نادرًا. اختار الصليبي شخصيات فردية ترمز إلى تغيير دراماتيكي، وفهم كمؤرّخ الموضوعات التي توضحها حيواتهم وتلقي الضوء عليها. كما كان مدفوعًا بميل استثنائي إلى تحطيم الأوثان التقليدية، والاستخفاف المطلق بالسلطة السياسية، وإلى التشكيك المرح الذي أَسَرَّ أجيالًا من الطلاب والقراء وألهب حماستهم.

حافظ الصليبي على معايير الحرفيّة الأدبية المطلقة، وكان كاتبًا جميلًا وموحيًا، وغالبًا ما ادّعى القراء والنقّاد أن نثره سهل الفهم، لكنّه تميّز في الواقع بحرفيّة أدبية مرهفة مستمدّة من حفظه مئات القصائد بالإنكليزية والعربية. قرأ الروايات باستمرار، وبقي محتفظًا بأذواقه الكاثوليكية غير المتكلّفة. وكان أرشيفه الرئيس ذاكرته الغزيرة، ومخيلته الخصبة، وفضوله الشديد، وشارك ذلك كله مع الآخرين بسخاء ومن دون مقابل.

في بداية حياته المهنية الطويلة والاستثنائية، وصف الصليبي بطله أبا علي على النحو الآتي: «تعيد مذكراته نسج مناخ الحقبة نسجًا مفعمًا بالحيوية؛ وتكشف، علاوة على ذلك، عن رجل يتمتع بنظرة حديثة لافتة، حذر وداهية لكنه منفتح وبعيد عن التحيّز كل البعد، متقبّل للأفكار الجديدة، هجومي وقادر على استغلال الفرص جيدًا، وضعيّ بالفطرة، يؤمن بالتقدّم، وخبير في حلّ العقد المستعصية».

(12) Salibi, «Beirut under the Young Turks,» p. 138.

الفصل الرابع

كمال الصليبي رائد الدراسة العلمية الوضعية لتاريخ لبنان الوسيط

الياس القطّار

قبل كمال الصليبي، لم تستحوذ دراسة لبنان الوسيط - وهي جزء من دراسة تاريخ لبنان العامة - على الاهتمام اللائق، شأن دراسة حقبتي التاريخ القديم والحديث المعاصر، إذ كان للبنان مجد معروف في عهد الكنعانيين - الفينيقيين من جهة، وفي عهد الإمارتين المعنّية والشهابية ثم المتصرفية من جهة أخرى، ثم في ظل الكيان والوطن اللبنانيين من جهة ثالثة. كانت دراسة الحقبة الوسيطة تجنح نحو الأخذ بالأساطير على علّاتها، والمعطيات التاريخية على الرغم من غلوها، حيث كانت صفة الأبولوجيا (Apologie) هي الغالبة على معطيات تاريخية برز فيها الموارنة والموحدون الدروز (خصوصًا عند المؤرخين الموارنة جبرائيل ابن القلاعي والبطريرك إسطفان الدويهي وطنوس الشدياق، وعند المؤرَخين الدرزيين صالح بن يحيى وابن أسباط).

نتيجة لذلك، كادت المعلومات التاريخية عن تاريخ لبنان الوسيط تنحصر في الموارنة والدروز دون غيرهم من الجماعات الدينية اللبنانية الأخرى، فصاغ الصليبي معطيات تاريخ لبنان الوسيط بصورة علمية أكاديمية، معتمدًا إلى حدّ بعيد منهجية المدرسة الوضعية التي ازدهرت في الربع الأول من القرن العشرين. واقتضى هذا الصوغ مروره بمراحل قادته إلى بلورة موقفه من هذه المعطيات، وإلى وضع المعلومات في سياقها التاريخي القابل للتصديق.

وبما أن الصليبي يتناول - في أهم ما كتبه - تاريخ لبنان الوسيط عبر القطبين الماروني والدرزي، سنحاول التركيز في هذه الدراسة على المحور الماروني، لنسلط الضوء من خلاله على مساهمة الصليبي في توضيح صورة الموارنة في ذلك الزمن، مستقرئين ذلك من خلال المحاور الآتية:

- البحث عن الأصول المؤسسة في تاريخ لبنان الوسيط، ودراسة مضمون المؤرخين الموارنة ومنهجيتهم: المطران جبرائيل ابن القلاعي أنموذجًا.

- البحث عن الجديد في صوغ كمال الصليبي محاور من التاريخ اللبناني الوسيط - الموارنة: كنيسة وحكامًا وتأريخًا، من خلال أنموذج ابن القلاعي، في دراساته التي تلي أطروحته وفي منطلق تاريخ لبنان.

- بداية صوغ محاور من التاريخ اللبناني الوسيط - الموارنة: كنيسة وحكامًا وتأريخًا.

- استكشاف موقع الصليبي في الواقع الحالي للدراسات في تاريخ لبنان الوسيط.

في عام 1953، نال كمال الصليبي دكتوراه في التاريخ، بفضل أطروحة تناولت المؤرخين الموارنة وتاريخ لبنان في القرون الوسطى، صدرت في عام 1959، وشكلت عملًا رياديًا في دراستها تاريخ لبنان الوسيط من خلال مصادره المتاحة، والمصادر المارونية تحديدًا، التي تكاد تكون - إضافة إلى مصدري الإمارة التنوخية صالح بن يحيى وابن أسباط - المصادر شبه الوحيدة لهذه الحقبة الزمنية.

سبق الصليبي مؤرخان أكاديميان لامعان في التأريخ للبنان، هما أسد رستم وفيليب حتي. عني رستم بالتاريخ الحديث، وكرّس حتي للبنان كتابه لبنان في التاريخ، إلا أن التاريخين القديم والحديث حظيا باهتمامه أكثر من التاريخ الوسيط، مع أنّه برع في التأريخ للعرب في التاريخ الوسيط في كتابه تاريخ العرب المطول. جاءت دراسة الصليبي لتملأ فراغًا في التأريخ للبنان الوسيط، وهي لم تقتصر على سرد المعلومات عن هذه الحقبة شديدة الغموض، بل أتت دراسة نقدية تحليلية وضعت الحوادث في سياقها التاريخي الذي شذّت عنه أحيانًا هذه المصادر.

لم تكن محاولات ابن القلاعي والبطريرك إسطفان الدويهي وطنوس الشدياق، المحاور الثلاثة التي تعرض لها في أطروحته، أول محاولات مارونية لكتابة التاريخ. فمنذ عهد الخلافة العباسية، كان للموارنة مساهمات في التأريخ العربي - الإسلامي.

كان فتيوفيل بن توما الرهاوي (توفي في عام 784م) منجّمًا ومترجمًا ومؤرّخًا مارونيًا من الرها، على «مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى» بحسب ابن العبري، رئيس المنجمّين عند المهدي العباسي. له كتاب جيد في التاريخ لم يصلنا، لكن نقل عنه المؤرخون ومنهم أغابيوس المنبجي (من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، فكان المصدر الأساس لمعلوماته، كما اختصره على ما يبدو. نقل إلياذة هوميروس من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة، وبعض كتب أرسطو، وهو الذي جعل صورة الحركات السريانية الخمس على شبه صورة الحركات اليونانية في ترجمته كتاب هوميروس، كي لا تختلف كتابة الأعلام في اللغتين، فتابعه على كتابة صور الحركات على هذا النحو السريان، إلا النساطرة[1].

أما قيس الماروني فيرد ذكره عند المسعودي. له كتاب حسن في التاريخ انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي، نشر مقاطع منه المستشرق نو الفرنسي. ولا ندري إذا كان قيس من لبنان أو من بلاد الشام[2].

لكن لم يؤرخ هذان المؤرخان للبنان، بل ساهما في التأريخ العربي-الإسلامي العام. لذلك ركز الصليبي على المؤرخين الثلاثة (ابن القلاعي، الدويهي، الشدياق) لأن لبنان كان محور كتاباتهم.

ترك الصليبي مجموعة من الكتب في التاريخ الحديث والمعاصر والوسيط، وبحوثًا في مسائل من تاريخ التوراة. كتب في التاريخ الوسيط **المؤرخون الموارنة خلال العصر الوسيط** بالإنكليزية (*Maronite historians of mediaeval Lebanon*) المنشور في عام 1959، و**بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى: محاكمة إمبراطورية من 534 حتى 1976** المنشور في عام 1979، و**تاريخ الجزيرة العربية** المنشور في عام 1980.

(1) انظر: الياس قطار، **لبنان في القرون الوسطى: من الفتح العربي - الإسلامي إلى الاحتلال الفرنجي** (بيروت: المؤلف، 2003)، ص 108.

(2) المصدر نفسه، ص 108، وأبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **كتاب التنبيه والإشراف** (ليدن: مطبعة بريل، 1893)، ص 148.

أما مقالاته فعديدة، وهي الآتية:

- Kamal Salibi, «The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk Rule (1099-1516),» *Arabica*, vol. 4 (1957), pp. 290-296.

- Kamal Salibi, «The Maronite Church in the Middle Ages and its Union with Rome,» *Oriens Christianus*, Band 42 (1958), pp. 92-104.

- Kamal Salibi, «The Buhturides of the Garb, Medieval Lords of Beirutand of Southern Lebanon,» *Arabica*, vol. 8 (1961), pp. 74-97.

- Kamal Salibi, «The Traditional Historiography of the Maronites,» in: *Historians of the Middle East*, edited by Bernard Lewis and P. M. Holt (London: Oxford University Press, 1962), pp. 212-225.

- Kamal Salibi, «The Muqaddams of Bsharri: Maronite Chieftains of the Nortern Lebanon, 1382-1621,» *Arabica*, vol. 15 (1968), pp. 63-86.

- Francis Hours and Kamal Salibi, «Muhammad ibn al Hanash, Muqaddam de la Biqaa, 1499-1518; un episode peu connu de l'histoire libanaise,» *Melanges de l'universite St-Joseph*, vol. XLIII (1968), pp. 3-23.

يضاف إلى هذه المقالات ثلاث أخرى عن أمراء غزير وعن آل سيفا وعن المعنيّين، فيها مقاطع قليلة من التأريخ للقرون الوسطى، ودراسة عن قضاة مصر.

أولًا: البحث عن الأصول المؤسسة في تاريخ لبنان الوسيط

المؤلف المنشور عن تاريخ الموارنة نسخة منقحة عن أطروحة دكتوراه ناقشها الصليبي في كلية الفنون في جامعة لندن في حزيران/ يونيو 1953، عنوانها «دراسات في الكتابة التاريخية التقليدية للموارنة بين عامي 1100 و1516م».

التواريخ اللبنانية هي المصدر الأساس، إن لم تكن المصدر الوحيد، لتاريخ لبنان بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، خلال عهدي الصليبيين والمماليك. فنادرًا ما تشير المصادر الإسلامية العائدة إلى هذه الحقبة إلى الأمور الداخلية في لبنان، إلا في حالة حدث عسكري ما في تلك الجبال المتاخمة للبحر، كما حدث مع الحملات التأديبية التي طالت الدروز والمسلمين الخارجين على السنّة في

المنطقة. لم تولِ المصادر المسيحية الشرقية لبنان اهتمامًا كبيرًا، بينما امتدحت المصادر الغربية الفرنجية مهارة الموارنة في لبنان وشجاعتهم وإيمانهم من دون تقديم أي تفصيلات عنهم. أما الحجاج والمرسلون في العهد الصليبي والمرحلة اللاحقة فيمثلون مصادر مقبولة، خصوصًا بالنسبة إلى الموارنة، لكن المتأخرة منها تكرر ما سبق وقاله السابقون[3].

استحوذت المصادر المارونية على اهتمام الكتابات التاريخية عن لبنان في القرن التاسع عشر، بعدما طبعت مؤلفات ابن القلاعي والبطريرك الدويهي المؤسس وأكبر مؤرخي الموارنة أهمية، إضافة إلى مؤلفات أخرى. بدأ وضع هذه المصادر على مشرحة النقد على يد جورج غراف (Graf)، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا ولا معمقًا، بل كان بداية الطريق بضبط المؤلفات لا بنقدها[4]. وما قدمه الصليبي لم يكن تأريخًا للتأريخ الماروني، بل تأريخًا تحليليًا للبنان في عهدي الصليبيين والمماليك (بين عامي 1099 و1516م) من خلال ثلاثة أعلام من المؤرخين الموارنة: جبرائيل ابن القلاعي (توفي في عام 1516م) والبطريرك إسطفان الدويهي (توفي في عام 1704م) وطنوس الشدياق (توفي في عام 1861م)[5].

كان التأريخ الماروني في الأساس تعبيرًا عن فخر وطني لطائفة صغيرة ومغلقة على ذاتها ومحاطة بالأعداء، مهتمة بتاريخها وبتحديد هويتها في ظل المتغيرات المحيطة بها. فكنيسة الموارنة - وهي ربما الأصغر بين الكنائس الشرقية، وربما الأقدم في رأي بعضهم - هي الأولى التي اتحدت بروما ولم تخضع لمراسيم السلطات الإسلامية للاعتراف بسلطتها كباقي الطوائف المسيحية الشرقية. فخلال مئات السنين، حافظ الموارنة على جبالهم متحررين من سلطة المسلمين المباشرة، ما ساهم في نمو شعورهم الوطني الذي استوحاه مؤرخوهم[6]. وما ساهم في دفعهم إلى التأريخ لأنفسهم دفاعهم ضد تهمة

(3) Kamal Salibi, *Maronite Historians of Medieval Lebanon*, Oriental Series; no. 34 (Beirut: American University of Beirut, Faculty of Arts and Sciences, 1959), pp. 13-14.

(4) المصدر نفسه، ص 15.

(5) المصدر نفسه، ص 15.

(6) المصدر نفسه، ص 15.

«الهرطقة المونوتيلية» التي اتهموا بها، وتأكيدهم وحدتهم بروما منذ البداية. وكان ابن القلاعي أول من حمل لواء هذا الدفاع، ومن هذا المنطلق يصبح التأريخ تأريخًا دفاعيًا (Polemic)[7].

قبل ابن القلاعي، لا نعرف كثيرًا عن التأريخ الماروني. ويشير غراف إلى مؤرخين اثنين: يوحنا الراهب الماروني الذي دوّن تاريخًا للكنيسة وعاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وتأريخًا لدير مار شليطا مقبس في كسروان، بيد تادرس مطران حماه الماروني، نشر نصه بولس قرألي في حروب المقدّمين؛ والياس، من معاد، المعاصر لابن القلاعي، لكن لم يُعرف نصه إلا من خلال البطريرك الدويهي[8].

ابن القلاعي أول مؤرخ ماروني يمكن بسهولة التعرف إلى آثاره. في تاريخه، لا يهتم عمومًا إلا بتاريخ طائفته وكنيسته، وروح مؤلفاته تأكيد وحدة كنيسته بروما، وأن أي خروج عن ذلك يؤدي إلى كارثة. لذلك دوّن مديحة على جبل لبنان تاريخًا خياليًا لطائفته من زمن غير محدد، وعهدًا ذهبيًا من الأرثوذكسية في الإيمان والتطور المادي ليومه الحاضر في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر[9].

مع الدويهي، اتخذ التأريخ للموارنة حقلًا أوسع، عاكسًا تطور الموارنة السياسي خلال القرنين الأولين من التاريخ العثماني. في زمن ابن القلاعي، كان الموارنة طائفة معزولة في الجبل يديرها مقدّموها الذين يدفعون ضريبة غير مستقرة لحكام طرابلس، ولم يهتموا كثيرًا لجيرانهم المسلمين والدروز إلا بذكرى العداوة السابقة. تغيرت الأحوال في زمن الدويهي، فمع مطلع القرن السابع عشر تشارك الموارنة والدروز لبنانًا موحدًا تحت حكم الأمراء الدروز. وسّع الأمير فخر الدين المعنّي الثاني الذي بدأ عملية التوحيد أفق لبنان إلى البقاع والجليل ومناطق أخرى مجاورة، فعكَس هذه العملية كلها مؤرخًا للدروز

(7) المصدر نفسه، ص 15-16.

(8) المصدر نفسه، ص 16.

(9) المصدر نفسه، ص 17.

ولغير الموارنة ولسورية. كان الدويهي مؤرخًا في الأساس لطائفته وللدفاع عن استمرارية وحدة الموارنة بروما[10].

كان ابن القلاعي والدويهي من الأكليروس، كما أغلبية المؤرخين الموارنة قبل القرن التاسع عشر، مهتمين بمسألة وحدة الموارنة بروما. وفي القرن التاسع عشر، بدأ المؤرخون «العلمانيون» الموارنة بالظهور. فالشيخ أبي خطار أنطونيوس العينطوريني والأمير حيدر الشهابي وطنوس الشدياق كانوا مهتمين بالتاريخ السياسي وبالنظام المقاطعجي[11]. ودرس مؤسسو التأريخ الماروني في إيطاليا، فانتشر تقليدهم في بيئة معزولة. ونسج على منوال ابن القلاعي الذي يخلط الأسطورة بالواقع، الأسقف الياس بن حنا الإهدني والبطريرك يوسف العاقوري. أما الدويهي، أول مؤرخ ماروني يصل إلى مقاربات نقدية في تأريخه لطائفته، فقد نسج على منواله كثيرون، آخرهم المطران يوسف الدبس، وهو آخر المؤرخين الموارنة الكبار من الأكليروس، واستعان بكتبه المؤرخون العلمانيون كالشهابي والشدياق، وكما استقوا معلوماتهم من مصادر أخرى[12].

كانت العوامل التي أدت إلى تطور التأريخ الماروني هي نفسها التي قادت مؤرخيه إلى الوقوع في الأخطاء الكبيرة. ففي رغبتهم في إظهار التاريخ الماروني المجيد، اندفع هؤلاء إلى المغالاة في استقلاليتهم في ظل الفرنجة والمماليك والدور الذي أداه هؤلاء، وهذا ما يؤكده ابن القلاعي. ففي مديحة على جبل لبنان، لا يمكن تمييز قادة الموارنة وأبطالهم من قادة الفرنجة وأبطالهم. حتى الدويهي، على الرغم من حسّه النقدي، لم يكن حرًا في مقاربته الساذجة لتاريخ طائفته السياسي. فلإندفاع المؤرخين الموارنة لتأكيد أصالة واستمرارية أرثوذكسية عقيدتهم تأثير في الكتابات التاريخية المارونية، وهم انتقدوا بحدّة المصادر التي تطعن باستمرارية هذه العقيدة وإصالتها[13].

---

(10) المصدر نفسه، ص 17.

(11) المصدر نفسه، ص 18.

(12) المصدر نفسه، ص 20.

(13) المصدر نفسه، ص 20-21.

تكمن قيمة التأريخ الماروني في أنه مصدر التأريخ للفرنجة والمماليك في مقابل شح المصادر الأخرى، لا في موضوعية المعلومات ودقتها. فقليلة جدًا هي الأخبار المعاصرة عن لبنان الوسيط التي وصلتنا[14]. إن دراسة التواريخ المارونية والمصادر اللبنانية الأخرى ضرورية لفهم تاريخ لبنان في أواخر القرون الوسطى، الذي لم يكن قد كُتب بعد بشكل علمي في زمن الصليبي، ولا يوجد تاريخ للبنان الوسيط من دون التواريخ والمصادر التي ذكرنا آنفًا. ففيها نكتشف كيف بُني النظام «الفيودالي» في العهدين الفرنجي والمملوكي في لبنان، وكيف نشأت علاقة مسيحيّي لبنان بالغرب، وكيف نمت فكرة استقلالية لبنان[15].

لوضع الصليبي في إطار قيمته العلمية، غير المتنازع عليها، سنعتمد على دراسة أنموذج من المؤرخين الموارنة الثلاثة هو جبرائيل ابن القلاعي، لأن دراسته كانت الأصعب والأشدّ التصاقًا، وأساس الأساطير التي طبعت التواريخ الأولى للموارنة، ونسج عليها المؤرخون اللاحقون الذين تحرر بعضهم في قسم منها، وعلى رأسهم البطريرك إسطفان الدويهي.

تراعي الطريقة المعتمدة في الدراسة منهجية الصليبي في عرض الخبر من جهة، ونقده من جهة أخرى. ولإبراز هذا النقد عمدنا إلى استقراء المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الصليبي وسلّط عليها الضوء لإبراز دقائق البحث التي قام به.

1- نقد آثار ابن القلاعي وتحليلها

كان ابن القلاعي أسقف الموارنة في جزيرة قبرص حين توفي في نيقوسيا في عام 1516م، أي في عام انتقال الشرق إلى سلطة العثمانيين. هو أول مؤرخ ماروني درس في إيطاليا، وأول من جمع روايات التاريخ الماروني منذ البدايات حتى زمانه. وكانت رسائله وزجلياته مصدر معلومات المؤرخين

(14) المصدر نفسه، ص 21.

(15) المصدر نفسه، ص 22.

الموارنة الذين أتوا بعده، وأساس المعلومات عن حقبتي الفرنجة الصليبيين والمماليك[16].

يعرّف الصليبي بابن القلاعي مستندًا، في الأساس، إلى البطريرك الدويهي، وإلى ما ورد في بعض زجلياته المطبوعة والمخطوطة المحفوظة في مكتبات بكركي والمكتبة الشرقية، ويغني معلوماته بما ورد عند المطران يوسف الدبس والمطران ديب[17].

يروي الصليبي كيف سعى فرا غريفون (Gryphon) الفرنسيسكاني، المرسل البابوي إلى الموارنة، إلى إرسال ابن القلاعي وشابين مارونيين للدراسة في روما في عام 1470م، وإدخالهم الرهبانية الفرنسيسكانية. وبعد حصوله على معارف الغرب في ذلك الزمان، ودراسة اللاهوت واللغة اللاتينية واليونانية، عاد إلى لبنان في عام 1493م لمجابهة انجذاب بعض الموارنة، وعلى رأسهم المقدّم عبد المنعم، إلى «المونوفيزية» اليعقوبية. يسند الصليبي معلوماته عن هذا الموضوع إلى زجلية الأبراج والأفلاك لابن القلاعي، وإلى ما ذكره هنري لامنس في مقالته عن فرا غريفون، وما ذكره فرانسيسكو سوريانو، رئيس الفرنسيسكان في الأرض المقدسة، في كتابه **المعاهدة في الأرض المقدسة والشرق** (*Il trattato di Terra Santa e dell'Oriente*)[18].

زار ابن القلاعي قنوبين وناقش الأكليروس الماروني والمقدّم عبد المنعم، وسافر إلى القدس برفقة سوريانو، وراقب منهجية اليعاقبة في التبشير، فاكتشف أن هؤلاء يغوون الموارنة بالتربية والتعليم، فعمد إلى تبشير معاكس معتمدًا الشعر العامي اللبناني، أو الزجل، وكتب وترجم كتب لاهوت وليتورجيا من اللاتينية ونشر الرسائل لتأكيد الإيمان الكاثوليكي ومجابهة الضلال اليعقوبي في عرفه. وكان أول نتاج له في القدس «مارون الطوباني» والغاية منه تأكيد الإيمان الكاثوليكي والعلاقات التاريخية بين الكنيستين الكاثوليكية والمارونية.

---

(16) المصدر نفسه، ص 22.

(17) المصدر نفسه، ص 24-25.

(18) المصدر نفسه، ص 24-25.

ويسند معلوماته إلى نص زجلية مارون الطوباني التي تحتوي على ترجمة لسبع براءات بابوية مرسلة إلى بطاركة الموارنة بدًا من عام 1215م. والجزء الأخير محاججة ضد اليعاقبة والملكيين، وتعليم مسيحي في الإيمان الكاثوليكي وفي نظام الأكليروس[19].

أرسل ابن القلاعي عمله هذا إلى البطريرك سمعان مصحوبًا بزجلية **«تبكيت كل من زاغ عن الإيمان....»**. يحاول الصليبي تحليل وضعية الطوباني و«التبكيت» والبطريرك المرسلة إليه الزجلية، انطلاقًا من الدويهي وإبراهيم حرفوش ناشر **التبكيت**[20].

في عام 1494م، وبناءً على توصية البابا اسكندر السادس بعناية الفرنسيسكان بتنشئة الكنيسة المارونية، كُلّف ابن القلاعي بالأمر. ويسند الصليبي معلوماته إلى رسالة من ابن القلاعي إلى البطريرك شمعون نشرها الخوري إبراهيم حرفوش[21]. كتب ابن القلاعي خلال ثلاث سنوات 465 رسالة، إضافة إلى الزجليات والكتب التي حرر وترجم لتحصين الموارنة ضد اليعاقبة، ونشر المعتقد الكاثوليكي استنادًا إلى رسالة له إلى جرجس الرامي الذي زاغ عن الإيمان، نشرها الدويهي[22]. حماسة ابن القلاعي في الدفاع عن الإيمان أوصلته إلى أن يرئس الفرنسيسكان في قبرص، فترك لبنان إليها في عام 1496م، ثم أضحى في 1507م أسقفًا للموارنة فيها حتى وفاته، من دون أن تنقطع علاقاته بلبنان[23]. يسند الصليبي معلوماته إلى غولوبوفيتش (Golubovich) وإلى رسالة لابن القلاعي إلى أهل لحفد، محفوظة في أرشيف الفاتيكان[24].

وللتعرف على مؤلفات ابن القلاعي، يحيل الصليبي القارىء إلى نصّ

(19) المصدر نفسه، ص 27.
(20) المصدر نفسه، ص 27-28.
(21) المصدر نفسه، ص 29.
(22) المصدر نفسه، ص 29.
(23) المصدر نفسه، ص 30.
(24) المصدر نفسه، ص 30.

للدويهي الذي كتب أغلبية مؤلفاته بلغة عربية ركيكة، يبدو فيها جليًا أثر التركيب السرياني للجمل، واللهجة المحلية[25].

يرى الصليبي أنّ التاريخ لم يكن غاية ابن القلاعي في كل ما كتب، بل تحصين الموارنة من الزوغ عن الإيمان، وبث المعتقد الكاثوليكي وبرهان تعلق الموارنة الدائم بالمعتقد الكاثوليكي وبالكرسي الرسولي وثباتهم فيه، لذلك جاء التأريخ بما فيه من مبالغة وأساطير من ضمن هذا التوجه ولتأكيد هذه الغاية. وهذا التوجه سيصبح تقليدًا يدرج عليه المؤرخون الموارنة، وكان آخر من بحث فيه يوسف الدبس[26]. وكتب ابن القلاعي للبطريرك شمعون ينبئه بأنه نشر 40 رسالة بابوية للموارنة محفوظة في ديره تؤكد صحة تعلّقهم بروما، ويسند الصليبي كلامه هنا إلى الرسالة وإلى البطريرك شمعون وإلى مديحة على جبل لبنان. ويذكر أن ابن القلاعي يسند معلوماته إلى التواريخ التي تروي 600 عام من تاريخ الموارنة. ربما تكون هذه التواريخ أو الحوليات محلية، كتاريخ تادرس مطران حماه ويوحنا الراهب الماروني، وحواشي تاريخية مدونة على كتب الصلاة والحوليات الصليبية وكتب الرحالة الأوروبيين[27].

2- مديحة على جبل لبنان

تقع زجلية مديحة على جبل لبنان في 294 بيتًا، وربما كُتبت في عام 1495م، أي بعد موت المقدّم عبد المنعم. وهي أطول قصائد ابن القلاعي الزجلية وتقارب الملحمة برواياتها بطولات أمراء الموارنة وزعمائهم الأحرار في تصديهم للغزو الإسلامي. يتناول الصليبي نسخها المخطوطة، والنسخة التي طبعها بولس قرألي، متسائلًا إذا كتبت بعد موت عبد المنعم استنادًا إلى ذكر ذلك فيها، أو أدخل النساخ ذلك عليها لاحقًا. وتتميز هذه الزجلية بنفس بطولي، لا يميز بين التاريخ الحقيقي والمغالاة فيه، تواريخه مغلوطة، لكن إذا اخضعناه [التاريخ] للنقد لصوبنا ذلك باتجاه استعماله مصدرًا لمرحلة مجهولة من تاريخ لبنان[28].

---

(25) المصدر نفسه، ص 32.

(26) المصدر نفسه، ص 33.

(27) المصدر نفسه، ص 34-35.

(28) المصدر نفسه، ص 36.

يصف مدخل المديحة العهد الذهبي في جبل لبنان من دون تحديد زمن لذلك، في ظل سلطة بطريرك وحاكم متمسك بالقيم، يتعاونان في الفضيلة، ولا يمكن التكهن إن كان يشير إلى عهد المردة في القرن السابع أو عهد الفرنجة الصليبيين. وفي المجمل، المديحة هي قبل كل شيء عظة شعرية موجهة ضد المقدّم عبد المنعم ومن شايعه من الموارنة في بدعته[29]. يحيل كتاب **مختصر تاريخ جبل لبنان** العهد الذهبي إلى زمن المردة، بينما يرجح قرألي – ناشر المديحة والمختصر – أن يكون ذلك في القرن الثالث عشر عندما ساعد الموارنة الصليبيين[30].

تخبر المديحة عن أمير بسكنتا – من دون أن تعطيه اسمًا – الذي أرهب البقاع ثم سقط أمام مكيدة العدو. تلي ذلك قصة ابن أخت المقدّم سمعان الذي عيّنه ملك جبيل والبطريرك الماروني ملكًا على الخارجة (في كسروان). ويعلق الصليبي قائلًا إن ابن القلاعي ينسب البطريرك إلى حالات، والمختصر يجعله البطريرك غريغوريوس الحالاتي، ويفترض بالحدث أن يكون جرى في القرن الثاني عشر[31]. تلي ذلك قصة عهد كسرى خليفة سمعان الذي أعطى اسمه لكسروان، وينتهي معه القسم الأول من المديحة الذي يروي مجد الموارنة، ليبدأ القسم الثاني الذي يروي المآسي الناجمة عن اعتناق الموارنة بدعة اليعاقبة بتأثير من الشيطان الذي أغوى راهبين اقتبل البطريرك لوقا البنهراني ضلالهما، فانقسم الموارنة واستغل المسلمون المناسبة وهاجموا كسروان ودمروه (يبدو أنه يقصد بذلك حملة المماليك في عام 1305 م)[32]. ويروي القسم السادس من المديحة رحلة البطريرك أرميا العمشيتي إلى روما في عام 1215 م (أول تاريخ يظهر في المديحة) طلبًا للغفران من البابا على ضلال الراهبين، ويورد تاريخ وفاته في عام 1230 م[33]. ويخبر القسم السابع قصة دخول الضلال إلى جبة المنيطرة، وتلي ذلك ثلاث قصص: الأولى تخبر عن سلطان شارد استقبله راهب فأنعم على دير قنوبين بعد رجوعه إلى السلطة؛ والثانية عن تدمير

(29) المصدر نفسه، ص 36.

(30) المصدر نفسه، ص 37.

(31) المصدر نفسه، ص 37.

(32) المصدر نفسه، ص 37–38.

(33) المصدر نفسه، ص 38.

جيش المسلمين بلدة الحدث (في عام 1283م)؛ والثالثة عن قيام مقدم جديد على بشرّي كان يحمل رتبة الشدياق[34]. ويروي القسم الثامن رواية سقوط طرابلس وجبيل بيد قلاوون في عام 1289م، ويخبر القسمان التاسع والعاشر عن انتصار مقدمي جبل لبنان على جيش المسلمين بعد سقوط طرابلس (في عام 1292م)[35]. كما يروي القسم الحادي عشر قصة استشهاد البطريرك جبرائيل من حجولا، الذي أحرقه المسلمون خارج طرابلس في عام 1367م، وقصة عودة الموارنة إلى الإيمان بعد مرحلة قصيرة من الضلال عوقبوا بسببها. ويحيل الصليبي القارىء إلى طوبيا العنيسي والدويهي لمزيد من المعلومات عن البطريرك جبرائيل[36]. أما القسم الأخير من المديحة فيروي اعتناق المقدّم عبد المنعم ضلال اليعقوبية في زمن ابن القلاعي، ويدعو المقدّم وأهل بشرّي للعودة عن الضلال إلى المعتقد الكاثوليكي[37].

في النسخة المطبوعة من المديحة، يصاحب كل قسم تاريخٌ مختصر نثرًا، وجده قرألي مربوطًا بنسخة للمديحة منسوخة في القرن التاسع عشر، ولا يعرف مؤلفه. أما غراف فينسبه خطأً إلى ابن القلاعي. وفي المكتبة الشرقية في بيروت نسخة مختصرة أخرى يعود تاريخها إلى عام 1863م، يقول ناسخها إنّه كتبها نثرًا لتسهيل قراءة شعر المديحة. ويعلق الصليبي على ذلك قائلًا إن في نسخة المكتبة الشرقية معلومات إضافية ولائحة بأسماء البابوات وأباطرة الرومان والبيزنطيين وملوك أوروبا (حتى عام 1860م) والمجامع الدينية والكنائس القديمة في لبنان والمتعلمين الموارنة والحسابات الفلكية، وتاريخها المعتمد هو 1863م، إضافة إلى تاريخ بلدة معاد، وتاريخ عائلة بصبوص، وتواريخ القديسين اللبنانيين. ويرجح الصليبي أن يكون كاتب المختصر الثاني رجل من بلدة معاد، رافق المؤرخ الفرنسي إرنست رينان في جولاته في بلاد جبيل، لذلك يفصل الصليبي هذه النسخة المخطوطة عن النسخة المطبوعة من المختصر[38].

---

(34) المصدر نفسه، ص 38.

(35) المصدر نفسه، ص 39.

(36) المصدر نفسه، ص 39.

(37) المصدر نفسه، ص 39.

(38) المصدر نفسه، ص 39-40.

3- التبكيت

التبكيت زجلية ثانية لابن القلاعي، توجد نسخة مجتزئة وحيدة منها في بكركي، ونشر الدويهي باقي الأجزاء. منشورة في الدويهي. في الأساس، كانت هذه الزجلية مؤلفة من 185 بيتًا، وصل منها 135 بيتًا.

تبدأ هذه الزجلية بمحجاجة لاهوتية ولمحة تاريخية عن الموارنة واتجاههم نحو الضلال في زمن ابن القلاعي. ويبرز ذلك من خلال المقطع الذي يحاجج توما الكفرطابي، والمقاطع التي استنسخها الدويهي والتي تتكلم عن الأزمة الدينية التي وجدها ابن القلاعي في جبل لبنان، وتروي لقاءه بالمقدّم عبد المنعم، كما نجد وصفًا لمارون الطوباني، وتنتهي بالإهداء إلى البطريرك شمعون. يلي ذلك تقريظ للمقدم جمال الدين يوسف بن عبد المنعم الذي اعتنق العقيدة الكاثوليكية. وبما أن التبكيت كتبت قبل عام من موت عبد المنعم، فيفترض أن يكون التقريظ كتب لاحقًا[39].

ليست الرسالة إلى البطريرك شمعون، المؤرخة في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1494م، رسالة تاريخية، بل فيها معلومات تاريخية أهمها الكلام عن الأوضاع التي من خلالها توحد الموارنة مع روما[40].

وفي العودة إلى المديحة، نجد أن ابن القلاعي عندما كتب تاريخ لبنان حصر اهتمامه بالموارنة، ولمامًا بغيرهم. ومن الصعب تحديد الحدث الأقدم الذي يروى فيها، لربما تكون قصة أمير بسكنتا الذي روّع البقاع وسكن في قب الياس ثم تحايل السلطان عليه وقتله. يحدد المختصر هوية السلطان بـأنه عبد الملك بن مروان، والدويهي يعطي الأمير اسم يوحنا الذي قُتل بأمر من يوستنيانوس الثاني لأنه رفض الانصياع للهدنة بين الإمبراطور وعبد الملك. أما حيدر الشهابي فيعطي للأمير لقب مقدّم واسم الياس الذي أعطيَ اسمه لبلدة قب الياس، وقُتل في زمن أبي العباس السفّاح. وفي تحليل الصليبي لمقالة عن

(39) المصدر نفسه، ص 41.

(40) المصدر نفسه، ص 41.

الموارنة في زمن الفرنجة والمماليك، يبدو أمير بسكنتا كأمير للمردة، عاش زمن الأمويين ومطلع العصر العباسي، ولقي مصرعه بقسوة. وهذه القصة هي أنموذج عن تأريخ ابن القلاعي الذي لا يقدم أسماءً ولا تواريخ. وكذلك يربط ابن القلاعي المصير المشؤوم للأمير بإعجابه براقصة، ولهذا مُحي اسمه من التاريخ[41].

4- مقالات ورسائل

ربما كانت أول صورة من العهد الصليبي هي صورة توما الكفرطابي، أسقف كفرطاب الماروني الذي كتب المقالات العشر التي يدافع فيها عن «المونوتيلية». ومهّد لكتاب المقالات العشر التي نشرها السمراني في مجلة المنارة ناسخٌ يشرح أن الكفرطابي ناقش عقيدته مع بطريرك أنطاكيا للروم. ومن الغرابة أن ابن القلاعي المدافع عن الكاثوليكية لا يرتاب في تناقض كون الكفرطابي ماروني ومدافع عن «المونوتيلية». وبمراجعة نصوص ابن القلاعي عن الكفرطابي، يُبرز الصليبي التشويش الحاصل عند ابن القلاعي، إذ يخبر أن الكفرطابي طُرد من حرّان وجاء لبنان فتظاهر بإيمانه بالطبيعتين، وعندما تقبّله الموارنة بدأ بنشر معتقده المونوتيلي بينهم. فهو برأي ابن القلاعي ليس بماروني، بل كان عميلًا لليعاقبة في لبنان. يسأل الصليبي إن استند ابن القلاعي في قوله هذا على أساس ما. ففي عصره وحتى بعد مئتي عام، لم يسأل أحد ابن القلاعي، حتى الدويهي، على ماذا ارتكز في نعته بالعميل اليعقوبي، ولا تحرى قصة حياته كما يذكرها هو[42].

يذكر ابن القلاعي في رسالته إلى البطريرك شمعون، وفيها تأكيد استمرارية تعلق الموارنة بكرسي روما، أن البطريرك يوسف الجرجسي استلم من البابا العصا والتاج بعد سيطرة غودفروا دو بويون (Godefroy de Bouillon) على القدس. فهل سافر شخصيًا إلى روما أم أرسل مندوبًا عنه مع رسل غودفروا؟ يأخذ البطريرك الدويهي بالرواية الثانية في عام 1100م. لكن لا توجد رسائل متبادلة بين البابا باسكال الثاني (من 1099 إلى 1118م) والبطريرك في زمن ابن القلاعي لتدعم هذه الرواية أو تلك، فأول رسالة معروفة تعود إلى عام 1213م، متبادلة بين البابا

---

(41) المصدر نفسه، ص 44.

(42) المصدر نفسه، ص 45.

أينوشنتوس الثالث والبطريرك أرميا العمشيتي، وهي مدرجة في كتاب العنيسي عن البراءات البابوية، بينما يذكر الدويهي من دون أي سند أن البطريرك الجرجسي كان ساكنًا في يانوح في جبة المنيطرة. وفي الرسالة نفسها، يذكر ابن القلاعي لقاءً آخر بين مرسل من البابا أينوشنتوس يدعى غوليلمو والبطريرك الماروني جرجس من حالات - لا وثائق تذكر هذا الأمر - ويؤرخ الدويهي الحدث في عام 1131م. ولربما حاولت روما وضع الموارنة تحت طاعتها إذ نعرف أنها أرسلت في زمن البابا أينوشنتوس الثاني الكردينال البريكوس (Albericus) لفضّ خلاف نشب بين بطريرك أنطاكيا ورعيته، وحصل الكاردينال في القدس على خضوع بطريرك الأرمن لروما، ومن الممكن أن يكون حصل أيضًا على خضوع الموارنة، ولا وثائق تثبت هذا. ولربما خلط ابن القلاعي بين غوليلموس بطريرك القدس اللاتيني[43] وألبريكوس.

تخبر قصة الملك كسرى والمقدّم سمعان عن المساعدة التي قدمها زعماء الموارنة للصليبيين. ويروي ابن القلاعي أن المقدّم سمعان هو ابن أخت أمير بسكنتا المذكور، حارب المسلمين وانتصر عليهم في المروج. وبعد حرب دامت ثلاثين عامًا، انسحب إلى أنطلياس واستقر على الشاطىء، ثم جرت معركة شرسة بينه وبين المسلمين فانتصر عليهم، فزار في إثرها حاكم جبيل حيث التقى البطريرك الذي أتى من حالات، فاستقبلهما الحاكم ملك جبيل، ودعا أربعين أسقفًا من الدريب حتى بلاد الشوف لرسم سمعان ملكًا على الخارجة، أي المنطقة الممتدة بين نهر الكلب ونهر إبراهيم، وبقي سمعان يؤدي دوره في إبعاد المسلمين حتى وفاته في بسكنتا[44].

يؤرخ حيدر الشهابي معركة نهر الكلب في عام 871م، ولا يمكن الأخذ برأيه بجدية، بينما يشير مختصر تاريخ جبل لبنان إلى أن البطريرك هو غريغوريوس الحالاتي (من 1139 إلى 1141م) لكنه يخطئ بقوله إن حاكم جبيل يدعى يوسف، فلا حاكم يحمل هذا الاسم. وإذا كان سمعان معاصرًا لغريغوريوس فهذا

(43) المصدر نفسه، ص 46-47.

(44) المصدر نفسه، ص 49.

يعني أن حاكم جبيل هو هوغ الأول (1127-1135م) أو غليوم الثاني (1139-1159م). ولربما يشير المصدر الأرمني الكاهن غريغوار إلى المقدّم سمعان في روايته عن هجوم لرئيس عصابة لصوص يدعى سمعان على مدينة الرها. ويرجح ناشر كتاب غريغوار أن عصابة اللصوص التي يرئسها سمعان هي من المردة في لبنان، وبناءً عليه يرجح أن الموارنة كانوا في جيش الصليبيين، وأن سمعان كان واحدًا منهم. ويبدو أن الناشر قرأ ابن القلاعي[45].

قصة الملك كسرى تلي قصة سمعان، إذ اشتهر بوضع إشارة الصليب على لباسه، وسافر إلى القسطنطينية فقابل الإمبراطور، وعاد منها متعاهدًا معه، واستُقبل في طبرجا باحتفال، وسميت الخارجة باسم كسروان تيمنًا به. ويستنتج بولس قرألي أن كسرى كان من الصليبيين لأنه مثلهم كان يحمل إشارة الصليب على لباسه وسلاحه[46]. وتلي ذلك قصة كامل، مقدم لحفد الذي كان يجتاز الجبال ويغزو بعلبك، فعرض عليه كسرى أن يدخل في خدمته فرفض لأنه خاضع لسيد جبيل. ولم ييأس كسرى فعرض الأمر عليه ثانية، وعرض عقد قران ابنه بابنة كامل، فوافق هذا الأخير شرط عرض الأمر على سيد جبيل. وفي تلك الأيام، بنى المقدّم مسعود من حبالين كنيسة مار اسطفان قرب غرفين. ويعلق الصليبي قائلًا إن العلاقة بين كسرى وكامل تبرز العلاقة بين الزعماء اللبنانيين والفرنجة، إذ كان كسرى «فسّالًا» للفرنجة يقلدهم في شاراته، وربما زار القسطنطينية بصحبة كونت طرابلس أو قائد صليبي آخر. أما كامل فكان من خيالة سيد جبيل ومرتبطًا به بالتبعية الفيودالية (Lien de féodalité) ولذلك عليه طلب موافقة من سيده على زواج ابنته[47].

5- تخبط ابن القلاعي

زيارة البطريرك أرميا العمشيتي إلى روما هي أول حدث يعطيه ابن القلاعي تاريخًا (1215م) ويذكر مصادره. لكن الزيارة تختلط مع زيارة أرميا آخر لروما،

(45) المصدر نفسه، ص 50-51.

(46) المصدر نفسه، ص 51.

(47) المصدر نفسه، ص 53.

في عام 1283م، خفي أمره عن ابن القلاعي[48]. مدخل قصة زيارة البطريرك أرميا العمشيتي إلى روما هو خبر عن حملة المسلمين على كسروان ونهبها (المماليك في عام 1305م)، مع أن الحملة كانت موجهة أساسًا ضد المسلمين والدروز، لا ضد الموارنة. والسبب في ذلك غضب إلهي على الموارنة بسبب ضلال راهبين من يانوح ودير نبوح والبطريرك لوقا البنهراني. فانقسام الموارنة بسبب بدعة اليعاقبة سمح للمسلمين باجتياح منطقة كسروان ونهبها[49].

سافر البطريرك أرميا إلى روما يرافقه شدياق من هابيل. وتروي المديحة تفاصيل الرحلة التي جاءت بناء على نصيحة ملك جبيل للحصول على صك الغفران والبركة من البابا وتقديم الطاعة له. وقبل سفره، أودع شؤون الطائفة بيد تادرس أسقف كفرفو. استقبله أحبار سورية من اللاتين وقدموه للبابا أينوشنتوس الثالث (1198-1216م) الذي تأثر بخطاب أرميا الذي يقدم ابن القلاعي مضمونه بالتفصيل، واستجاب لطلبه. وبعد إقامة دامت خمس سنوات وستة أشهر في روما، قرر العودة إلى لبنان فأرسل معه الكاردينال غوليلمو الذي أعدّ صك خضوع الموارنة لروما. ترك الاثنان روما في 3 كانون الثاني/ يناير 1215م، ووصلا طرابلس في آذار/ مارس، فقدم أعيان الموارنة إلى طرابلس لاستقبالهما والحصول على بركة البابا. وعرض غوليلمو صك الخضوع على الأعيان فوقعه 270 منهم، وأعلنوا إيمانهم الكاثوليكي ورفضهم بدعة اليعقوبية وغيرها. وتوفي البطريرك أرميا في عام 1230م، ودفن في ميفوق[50].

زيارة البطريرك أرميا روما واقع تاريخي أكيد بعدما دعاه البابا أينوشنتوس لحضور مجمع «اللاتران» (Latran) الذي بدأ في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1215م. وتوجد رسالة موجهة بهذا الخصوص إلى البطريرك الماروني نجد نصها في طوبيا العنيسي. كما أن جاك دو فيتري (Jacques de Vitry) وأوليفر أوف بادوربورن (Oliver of Paderborn) يذكران وجوده في المجمع، واسمه معلن في

(48) المصدر نفسه، ص 53.

(49) المصدر نفسه، ص 53.

(50) المصدر نفسه، ص 55.

لائحة الأحبار المشاركين فيه[51]. في 3 كانون الثاني/ يناير 1215م (1216 في التقويم الغريغوري) وجه أينوشنتوس الثالث للبطريرك أرميا براءة تؤكد إنعامات يقدمها ابن القلاعي بصورة غير دقيقة في ترجمته، وتناساها في الدعوة إلى المجمع مع أنه يعطي التاريخ الدقيق له، وهو يتخبط في تواريخ أخرى في المديحة[52]. البراءة وثيقة مهمة وأساسية في تاريخ الموارنة، فهي توضح سعادة روما بعودة الموارنة إلى روما وإلى الإيمان الكاثوليكي، بعدما كانوا خرافًا ضائعة. وتخبر البراءة عن قيام الموفد البابوي الكاردينال بيتر أوف كابوا بزيارة لبنان في عام 1203م، ومقابلته أحبار الموارنة وأعيانهم في طرابلس، وتقديمهم الطاعة لروما بحضوره. وتذكر البراءة أسماء بعض الأساقفة، وحضور فرنجة طرابلس والأكليروس اللاتيني، ثم تعطي التصويبات المطلوبة من الموارنة في إيمانهم وطقوسهم، وتكرس البطريرك أرميا في كرسيه في يانوح وأساقفة آخرين في كراسيهم[53].

تؤكد البراءة «حلفان» (أو قَسَم) الطاعة الذي أدّاه الكاردينال بيتر لا من غوليلمو. لكن هذا الحلفان لم يعجب الموارنة رافضي الوحدة مع روما، فهاجموا بعض الأساقفة وقتلوهم. وحدثت الفتنة بسبب ضلال راهبي يانوح ودير نبوح. جرى اللقاء في طرابلس قبل عام 1215م (1216 غريغوري) عندما وصل الكاردينال بيتر إلى الشرق في زمن الحملة الصليبية الرابعة (1202–1204م). وفي تحليل البراءة هناك وقائع ثابتة في ما ذكره ابن القلاعي، مثل انقسام الموارنة والزيارة واللقاء مع الموفد الكاردينال بيتر في طرابلس، لكن تحرير ابن القلاعي للخبر مشوش، وكذلك التواريخ التي فيه. فالزيارة لم تتم بعد حملة 1305م ولم تأتِ بدعوة من زعيم جبيل الفرنجي. ويذكر قرألي أن ابن القلاعي يخلط بين بطريركين يحملان اسم أرميا، زارا روما: **الأول** أرميا العمشيتي، والثاني أرميا الدملصاوي (1282–1297م)، الذي زار روما في عام 1283م. وتؤكد هذه الزيارة، بالنسبة إلى العنيسي، رسالة محفوظة في هامش كتاب في المكتبة المديشية

(51) المصدر نفسه، ص 55.

(52) المصدر نفسه، ص 57.

(53) المصدر نفسه، ص 58–59.

في فلورنسا مؤرخة في عام 1279م، تخبر اختيار أرميا بطريركًا وإرساله من زعيم جبيل الفرنجي إلى روما، وتكليف الأسقف تادرس بشؤون الطائفة في غيابه[54]. ويسند العنيسي معلوماته أيضًا إلى وثيقة يؤدي فيها البطريرك الدملصاوي دور الشاهد في الصراع بين كونت طرابلس وحاكم جبيل[55]، وبذلك يتضح الفرق بين البطريركين، وبين الأسقفين اللذين يحملان اسم تادرس.

ثمة تخبط آخر يقع فيه ابن القلاعي بشأن الحملة على كسروان في عام 1305م، قبيل زيارة أرميا العمشيتي إلى روما، ويبدو أن زيارة أرميا الثاني إلى روما في عام 1283م، سبقتها حملة على جبة بشرّي، فدمرت بلدة الحدث وقرى أخرى. ويعطي ابن القلاعي وصفًا مستفيضًا للحدث الذي شارك فيه المقدّم بولس والأمير مسعود اللذان انتصرا على المسلمين في البدء فوصلت أخبارهما إلى السلطان، فجاء رجل من أبريسات ووعدهما بإعطاء بلدة الحدث للمسلمين، فعمل على تبشير مقدم الحدث بالضلال، ومع أنه مات حرقًا دخل المسلمون البلدة وأبادوا أهلها[56].

القصة الحقيقية لما حدث نصٌّ من ابن عبد الظاهر، واضع ترجمة السلطان قلاوون، الذي يتكلم عن بطريرك في بلدة الحدث عصا وتجبر فتحايل عليه المسلمون حتى ألقوا القبض عليه وقتلوه، واعتبر النصر عليه يوازي فتح قلعة[57].

البطريرك المذكور، في نظر الصليبي، هو لوقا البنهراني الذي أيد ضلال راهبي يانوح ودير نبوح، وهو تسلم البطريركية بحسب رأي الدويهي في عام 1282م، بعد دانيال الحدشيتي. ولا يعرف الدويهي أن بطريركًا آخر رُسّم في السنة نفسها هو أرميا الدملصاوي، في حالات، بمبادرة من كونت طرابلس. ويبدو أن البنهراني كان يمثل التيار المعارض للاتحاد بروما، ولا نعرف شيئًا عنه بعد

(54) المصدر نفسه، ص 59-60.
(55) المصدر نفسه، ص 60-61.
(56) المصدر نفسه، ص 62.
(57) المصدر نفسه، ص 62.

عام 1283م، ما يعني أنه البطريرك الذي قتله المسلمون في الحدث[58]. وبعد أرميا العمشيتي، يتكلم ابن القلاعي عن بطريرك آخر هو دانيال من شامات، جرت في أيامه اضرابات واعتناق للضلال في المنيطرة، وصراع مع ملك جبيل، ولا نعرف كثيرًا عن ذلك[59]. بعد ذلك قصة الملك الهارب الذي استقبله راهب في قنوبين، وعند رجوعه إلى السلطة كرّم الرهبان بتوقيع «فرمان» يعفيهم فيه من الضرائب وينعم عليهم فيه. ونجم عن ذلك هجرة إلى قاديشا من أمكنة كثيرة. ومن بين المهاجرين أربعون رجلًا تظاهروا بالنسك، وكانوا من دون أخلاق ومجرمين قتلوا المسيحيين فطردهم أهل جبة بشرّي من المنطقة[60].

وعودةً إلى الدويهي، السلطان هو برقوق (1382-1393م) الذي أغدق نعمه على دير قنوبين بعد عزله الموقت عن السلطنة. أما الأربعون رجلًا الذين سكنوا الفراديس فلا يبدو أنهم من المسيحيين، بل مسلمون من الجوار، من الضنية أو عكار أو جبال العلويين. ويبدو أنهم لم يأتوا بعد إغداق برقوق هداياه على الدير[61].

بعد هذا، يخبر ابن القلاعي عن قيام المقدّم يعقوب بن أيوب على مقدمية بشرّي للدفاع عن الجبة في وجه الضالّين والمسلمين، ويبدو أن المقدّم قام في السلطة بعد طرد المسلمين من الجبة. وأعطي المقدّم لقب الكاشف، وكان يحمل لقب الشدياق. ويخبر الدويهي أن برقوق أقامه مقدمًا على الجبة في عام 1390م. ولقب الكاشف هو لحكام المناطق (جبة بشرّي) في ظل النيابة في عهد المماليك، ما يدل على أن ما جرى لم يكن في عهد الفرنجة بل في عهد المماليك. وكان حكم المقدّم الكاشف يعقوب بن أيوب من قرن حردين إلى قرن أيطو، ولم تنتشر البدع في زمانه[62].

(58) المصدر نفسه، ص 63.
(59) المصدر نفسه، ص 64.
(60) المصدر نفسه، ص 64.
(61) المصدر نفسه، ص 66.
(62) المصدر نفسه، ص 67.

يخبر القسم التالي عن سليم مقدم بشرّي بن المقدّم الشدياق الكاشف الذي مال إلى اليعقوبية وشجع سكنى غرباء ملكيين من حوران في قرية العربة. وأضحى المقدّم تحت الحرم، فتشجع عسكر الشام المسلمون وهاجموا طرابلس، وحاصروا الأسوار ستة أشهر. ويخبر ابن القلاعي أن قسيسًا جاءهم من مار آسيا وأخبرهم «بكل الآشيا أن في شباط [فبراير] تموت الاحيا». ثم يخبر عن سقوط جبيل وتقديم سيدها يوحنا نفسه خادمًا للمسلمين فيها.

ثم تلي ذلك قصة سقوط جبيل. ولم يكن سقوط طرابلس في شباط/ فبراير بل في 26 أو 27 نيسان/ أبريل 1289م، ولم يستمر الحصار ستة أشهر بل شهرًا، كما تذكر المصادر العربية، وفي الأكثر شهران[63]. ويوجد شيء من الحقيقة في قصة سقوط جبيل. فبعد سقوط طرابلس سقطت جبيل وباقي المدن في الكونتية، وأخلاها الفرنجة. لكن كونت جبيل، «الإمبرياتشي» (Embriacci) الذي يسميه ابن القلاعي يوحنا، فضل البقاء فيها تابعًا للسلطان قلاوون، وهذا ما تؤكده المصادر والمراجع الغربية[64].

يبدو أن ابن القلاعي يخلط بين الموارنة والفرنجة عندما يروي قصص العهد الصليبي. ويعطي اسم غودفروا وحده صحيحًا (غوفريد)، فكونت طرابلس وأمير جبيل لا يمكن تميزهما من زعماء الموارنة الذين يلقبهم بالملوك[65]. وبعد سقوط طرابلس، يخبر ابن القلاعي عن الحملة على كسروان التي جرت في عام 1292م، زمن السلطان الأشرف خليل [بن قلوون]، حيث هزمت وربح فيها زعماء الجبال اللبنانية، ويعتبرها ابن القلاعي انتقامًا لسقوط طرابلس. وعندما سمع المقدّمون في الجبال بذلك، دقوا النواقيس واجتمع في المدفون والفيدار ثلاثون ألفًا، نزلوا من الجبال كالأمطار وتغلبوا على المسلمين. وتميز في المعركة المقدّم خالد من مشمش، وسنان وسليمان من إيليج، وسعاده وسركيس من لحفد، وعنتر مع أخيه مسرور (معكر مع أخيه مسرور، أو عكار مع أخيه مسرور، ولا ذكر للقرية التي

(63) المصدر نفسه، ص 68.
(64) المصدر نفسه، ص 69.
(65) المصدر نفسه، ص 69.

يتسبون إليها، وعنتر هو مقدم العاقورة، وجد عائلة بصبوص كما يذكر الصليبي نقلًا عن مخطوط في المكتبة الشرقية)، وتركوا جبيل وعره قفره لا من يكتب ولا من يقرا، وكل الكنايس مهجّرة لا ناقوس ولا صلبان. أما المقدّم بنيامين الذي أصله من حردين فقتله المسلمون ولم يقتلوا إنسانًا غيره، والذين كانوا في الفيدار جاءهم الأكراد في عسكر فانتصروا عليهم وأخذوا أسلحة الأكراد ونهبوا الزاد والعسكر مسرور فرحان[66].

ويشير المختصر، الذي كتب تاريخ معاد، إلى أهمية البلدة التي جرى فيها لقاء المقدّمين المذكورين أعلاه[67]. وبعد المعركة، اختار الزعماء مع البطريرك نقولا مقدمًا على جبة بشرّي بديلًا من سليم المقدّم الكافر، أي الهرطوقي. وكان نقولا قتل عشرين مسلمًا على نهر رشعين. وبدأ نقولا حكمه بطرد الهراطقة من الجبة فساد السلام أربعين عامًا من دونهم. يبدو أن النصر لم يتحقق في عام 1292م، ولا تلاه سلامٌ لأربعين عامًا، إذ سيلي ذلك حملتان مملوكيتان على الجبال الكسروانية في عامي 1300 و1305م[68].

يقدم ابن القلاعي تفصيلًا عن الحملة التي مني فيها زعماء المسيحيين والدروز والشيعة بالهزيمة، ويربطها بزيارة البطريرك أرميا العمشيتي إلى روما، كما ذكرنا، وبهرطقة راهبيّ يانوح ودير نبوح. ونتيجة الحملة ضد الرافضة (المتاولة) والدروز في وسط لبنان، أضحت المنطقة قفرًا ويحرسها التركمان. ويعطي المختصر وتاريخ معاد لائحة بالأديرة والكنائس التي دمرت. ويخبر تادرس مطران حماه الماروني، المعاصر لحملة عام 1305م، أن قادة الثوار كانوا من عائلة أبي اللمع الدرزية. ويخطىء ابن القلاعي بالقول إن برقوق السلطان دمر كسروان، وإن ذلك حصل قبل زيارة البطريرك أرميا إلى روما في 1215م. والحقيقة أنه كان محمد بن قلاوون، كما يذكر الدويهي والمصادر الإسلامية، لكن الدويهي يخطىء بالقول إن دمار كسروان حصل في عام 1307م، كما حاول قرألي أن يشرح أن الحملة

(66) المصدر نفسه، ص 69-71.
(67) المصدر نفسه، ص 71.
(68) المصدر نفسه، ص 72.

جرت قبل زيارة البطريرك أرميا، ما يشير إلى أنها جرت في زمن ملك آخر يدعى الملك الظاهر، أي ابن صلاح الدين حاكم حلب (1186-1216م)[69].

بعد المعلومة عن المقدّم نقولا، يأتي خبر استشهاد البطريرك جبرائيل من حجولا. يربط الصليبي هذا الاستشهاد بالاضطهاد الذي طال الموارنة، والمسيحيين عمومًا في عام 1367م، نتيجة هجوم ملك قبرص والفرنج على الإسكندرية.

لا تأخذ رواية ابن القلاعي في الاعتبار مسألة الاضطهاد الناجم عن الحملة على الإسكندرية، بل يربط ذلك بهرطقة أليشع الراهب الذي سافر إلى ماردين مركز اليعاقبة، ثم عاد إلى لبنان للتبشير بهرطقة اليعاقبة. ومع أنه توفي بعقاب من الله إلا أن تلاميذه نجحوا في جعل البطريرك يعقوبيًا، ما دفعه إلى اضطهاد مستقيمي الرأي.

رفض أهل جبيل الانصياع للبطريرك، واستمروا بقبول سلطة نقولا مستقيم الرأي. ونتيجة لذلك، استغل المسلمون الانقسام الماروني وانتشروا في المنطقة مدخلين الموارنة في الإسلام وفارضين الإقطاع عليهم. وبعد وفاة البطريرك الهرطوقي، خلفه جبرائيل من حجولا، مستقيم الرأي الذي استشهد بعد أن شهد ضده موارنة. لذلك عاقب الله الموارنة بتسلميهم للمسلمين الذين استعبدوهم ودمروا كنائسهم وفرضوا عليهم المكوس.

6- أين الحقيقة في رواية ابن القلاعي؟

بالعودة إلى الدويهي، كان يوجد ناسك اسمه أليشع في عام 1404م، مستقيم الرأي، ومن يذكره ابن القلاعي يفترض به أن يكون حيًا قبل 1367م. فهل كان يوجد أليشع آخر في زمن البطريرك يوحنا الذي سبق جبرائيل. ولا نعرف عن البطريرك يوحنا سوى أنه عاش في دير مار سركيس القرن في حردين، وكان حيًا في عام 1357م، ويؤرخ العنيسي زمنه بين 1357 و1367م، ولا تاريخ أكيد من التاريخين. فهل كان هذا البطريرك يوحنا هرطوقيًا؟[70]

(69) المصدر نفسه، ص 74.
(70) المصدر نفسه، ص 76-77.

يكمل ابن القلاعي مديحته بقصة الأخ الدومنيكاني إيمري الذي أنقذ الموارنة من هرطقة أليشع. ولا شيء يدل على شخصية إيمري الذي قاد الموارنة إلى الإيمان في زمن البطريرك يوحنا الجاجي (1404–1445م) أي زمن مجمع فلورنسا في عام 1439م الذي أرسل الجاجي إليه مندوبًا يمثله. وفي رسالته إلى البطريرك شمعون، يذكر ابن القلاعي أن مهمة إيمري حصلت قبل المجمع وأن رئيس الفرنسيسكان في بيروت كان الفرا جوان، الذي مثّل يوحنا الجاجي في مجمع فلورنسا. يسند الدويهي كلام ابن القلاعي عن مشاركة الموارنة في المجمع الذي رئسه البابا أوجين الرابع (1432–1447م)، وكان دوره مناقشة احتمال توحيد كنيسة الروم والكنائس الشرقية بروما[71].

تخبر القصة الأخيرة عن انتشار هرطقة اليعاقبة في جبة بشرّي في غياب ابن القلاعي في روما، في عهد المقدّم عبد المنعم. كان البطريرك الذي عاصر الهرطقة – لا يذكره ابن القلاعي بالاسم – هو بطرس بن يوسف بن حسان الحدثي (1468–1492م) الذي توفي قبيل رجوع ابن القلاعي من روما. ومات المقدّم عبد المنعم بهرطقته، وكان البطريرك يعيش في قنوبين. ويخبر ابن القلاعي عن اعتناق آخرين الهرطقة، ومنهم مقدم حردين المدعو ابن شعبان الذي كان في حردين على ما تخبر المديحة، وتخرّج عليه ثلاثة هراطقة، كما كان أساسًا من الملكيين ثم أصبح مارونيًا، وكان مقربًا من يعقوبي يدعى الأسقف عيسى هو من حوّل ابن شعبان وأهل حردين إلى اليعقوبية. وبدأ هؤلاء الهراطقة تعليم الشبان والبنات الإشارة بإصبع واحد (رمزًا للطبيعة الواحدة في السيد المسيح عند المونوفيزية). رفض المجمع الرابع ذلك، كما رفض البابا ليون السابع (لعل ابن القلاعي يقصد ليون الأول المعاصر للمجمع الرابع الخلقيدوني) والإمبراطور مستقيم الرأي مارسيان. وعندما مات ابن شعبان، خلفه ابنه في هرطقته (لا يعطي ابن القلاعي اسمًا له، ويسمّيه قرألي موسى)، وأرسل له ابن عطشى كتاب الهرطقة (يذكر الصليبي أن موسى ابن عطشى كان مرسلًا يعقوبيًا من طرابلس معاصرًا للمقدم عبد المنعم، ويبدو أنه كان قبطيًا من مصر، كما وجدت نسخة من كتاب الهرطقة في مكتبة الفاتيكان). ويكمل

(71) المصدر نفسه، ص 79–80.

الدويهي القصة في تاريخ الأزمنة بأن الهرطوقيين سميا وابنه جرجس من لحفد، وهما اللذان قوّيا هرطقة مقدم حردين.

لا يذكر الدويهي شيئًا عن وجود عملاء لابن عطشى المرسل اليعقوبي كما يشيع ابن القلاعي، ولا عن العلاقة بين ابن عطشى ومقدم حردين، بل يذكر فقط أن ابن عطشى بشّر المقدّم عبد المنعم. واستنادًا إلى الدويهي، بدأ العمل اليعقوبي التبشيري المنظم عند الموارنة مع نوح البقوفاني، البطريرك اليعقوبي لاحقًا (1493-1509م) وجاء من القدس إلى الفراديس وأحاطت به مجموعة من الرجال المهتمين بالدين، ومنهم الأسقف عيسى الذي يذكره ابن القلاعي، وابن شعبان من حردين، وموسى وحنا ولدا إبراهيم البقوفاني، وسميا وابنه جرجس من لحفد، وموسى من قرية موسى، وآخرون، ورسّمهم نوح أساقفة في الكنيسة اليعقوبية على يد ديسقوروس، أسقف القدس اليعقوبي. ولا يذكر ابن القلاعي نوحًا، ويقتصر على ذكر سميا وعيسى وابن شعبان. ويذكر أن سميا عاش في دير الفراديس، ونشر تلامذته الهرطقة اليعقوبية بين النساء خصوصًا، وهو الذي بشر المقدّم عبد المنعم[72].

في المديحة، نجد ابن القلاعي مهتمًا بتبشير المقدّم عبد المنعم ولحفد وبشرّي، وفي زجلية التبكيت نجد تفصيل قصة تحوّل عبد المنعم إلى اليعقوبية. فهو عند رجوعه إلى لبنان وجد المقدّم ميالًا إلى اليعقوبية نتيجة تلقيه تعاليم ابن عطشى الذي ألّف مع بعض الرهبان كتابًا بالعربية والسريانية. وهدد عبد المنعم كل من ينتقد هذا الكتاب بالطرد من المنطقة ومصادرة مقتنياته وأخذ أولاده وبناته. ونتيجة لذلك الاضطهاد، دخل اليعاقبة إلى جبة بشرّي واغدقوا الهدايا على المقدّم، لذلك عمد ابن القلاعي على ما يخبر في التبكيت، إلى كتابة الرسائل، فهدده المقدّم بالقتل (راجع نص التبكيت). ومع ذلك، زار ابن القلاعي المقدّم عبد المنعم شخصيًا، وحاول تبشيره بالإيمان الصحيح، فأجاب بأنه وجد إيمانه باليعقوبية في كتاب أعطاه ابن عطشى لعمه رزق الله، وهو لا يجادل في شؤون الدين لأنه لا يفهمه بوصفه علمانيًا، رافضًا طلب ابن القلاعي الاطلاع على كتاب ابن عطشى.

---

(72) المصدر نفسه، ص 80-83.

نستنتج من قصة ابن القلاعي أن الدعاية اليعقوبية كانت ناشطة في مناطق الموارنة في لبنان، وتظهر المديحة أن النشاط اليعقوبي كان سابقًا منذ هرطقة راهبي يانوح ودير نبوح. وربما حمل اليعاقبة إلى لبنان تبشيرهم بعد التضييق عليهم في سوريا، بعد طرد الفرنجة من الشرق وخسارتهم حلفاءهم المغول، ونتيجة الجو الذي سمح لهم باللجوء إلى مناطق الموارنة التي كانت تنعم بشبه استقلال ذاتي، وباضطهاد قليل نسبيًا تحت حكم مقدميهم الذين كانوا يحكمون كإقطاعيين، يفرضون العدالة ويديرون شؤون الأهالي. وجد اليعاقبة والملكيون متنفسًا لهم في المناطق المارونية، فعمدوا إلى تبشير المقدّمين لتسهيل وجودهم وتبشير الموارنة الذين لم يكن لديهم وقتذاك مناعة كافية في ثقافتهم الدينية ضد هذه التعاليم.

لم يكن التبشير محصورًا برجال الدين فحسب، بل مارسه أيضًا علمانيون من أمثال ابن عطشى، واعتمدوا رسالة التعليم في مجتمع ماروني يفتقر إلى التعليم والقراءة ومن ثم بث المعتقد اليعقوبي. فعمدوا إلى تعليم المقدّم عبد المنعم القراءة متتلمذًا على رجل دين يعقوبي، ثم استغلوا ذلك بتبشيره.

كان المقدّمون في جبة بشرّي وحردين أفضل مناصرين لليعقوبية، ما يعني أنهم كانوا يحصلون على منافع جراء ذلك. فكان أولئك اليعاقبة يأتون من المدن الساحلية ومن مراكز التجارة الغنية في الداخل حاملين الأموال. لم يكن اعتناق عبد المنعم لليعقوبية إيمانيًا، إذ ذكر لابن القلاعي أنه لا يفهم شيئًا في الدين. بينما اعتنق بعض رجال الدين الموارنة، مثل سميا وابنه جرجس، اليعقوبية للوصول إلى مراكز أعلى في كنيستها. ويظهر أن رجال الدين الموارنة هم من قاوموا الدعاية اليعقوبية، حرصًا على مصالحهم وسلطاتهم.

كان كل ما كتبه ابن القلاعي دفاعًا عن العقيدة الكاثوليكية في مواجهة التمدد اليعقوبي في مناطق الموارنة، وتاريخه الشخصي هو تاريخ الكنيسة المارونية في القرن الخامس عشر وتاريخ الحركة اليعقوبية وأعلامها في زمانه[73].

(73) المصدر نفسه، ص 83-87.

لم ينظر الصليبي إلى ابن القلاعي المؤرخ نظرة ثقة، بل وجده مهتمًا بالتبشير بالعقيدة الكاثوليكية الرومانية أكثر من اهتمامه بالوقائع. فهو رجل دين ومبشر قبل أن يكون مؤرخًا وشاعرًا. وعلى الرغم من الأخطاء التي تشوب قصصه التاريخية، والمغالاطات في التواريخ والأسماء والوقائع وخلطها بالأساطير، فهو مصدر مهم لتاريخ الموارنة زمن الفرنجة والمماليك، إذ لا توجد عنهم مصادر أخرى غير ابن القلاعي[74].

ثانيًا: هل من جديد في صوغ كمال الصليبي محاور من التاريخ اللبناني الوسيط؟

بمقارنة ما كتبه الصليبي في مقالاته التي تلت أطروحته عن الموارنة ومقدمي بشرّي، وجدت أنّه لم يطور كثيرًا ما ورد في كتابه عن المؤرخين الموارنة، وجلّ ما قدّمه من جديد هو استفاضة أكبر في الإطار التاريخي العام. ويبدو أنّه ركّز على البطريرك إسطفان الدويهي لتحرير مقالاته، لأن ما ورد عند الدويهي يقارب الحقيقة التي يسعى إليها الصليبي. لذلك، فمن المفضل التركيز على كتاب منطلق تاريخ لبنان الذي صاغ بشكل موحّد ما نشره من مقالات في إطار يقدم صورة متماسكة إلى حدّ ما عن تسلسل الحوادث التاريخية في تاريخ لبنان الوسيط.

لا جديد في التقويم العام لابن القلاعي من حيث أنه من أهم المصادر المارونية لبعض أصول تاريخهم، مع التحفظ في شأن القيمة العلمية التي تتمتع بها هذه المصادر[75]. فالتركيز في التواريخ المارونية مسلطٌ على علاقة الموارنة بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية، إذ جهد ابن القلاعي والدويهي في تكذيب المصادر والأدلة التي تشير إلى أن الموارنة لم يخضعوا لسلطة أحبار روما قبل القرن الثاني عشر. ويتصف نمط ابن القلاعي بالأسطوري واضح الغرض، لذا ينبغي تحاشي الإسناد إلى ابن القلاعي من دون إمعان النقد[76].

---

(74) المصدر نفسه، ص 87.
(75) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، 634-1516 (بيروت: دار نوفل، 1979)، ص 18.
(76) المصدر نفسه، ص 21.

أما بالنسبة إلى قصة ملك بسكنتا، فيعطي الصليبي معلومات مستفيضة جديدة تضع الحادثة في سياق محاولة الخلفاء العباسيين الأوائل ضبط الأرياف الشامية لإعادة توزيع الضرائب. أثار هذا الأمر حفيظة نصارى بلاد الشام وغيرهم، فتقدم نصارى جبة المنيطرة بشكوى ضد عامل الخراج في بعلبك، وصودف أن عسكرًا من الروم نزلوا طرابلس فثار أهالي المنيطرة وتجمعوا، كما يقول ابن عساكر، حول شاب يدعى بندار وعينوه ملكًا ورفعوا راية الصليب وأغاروا على سهل البقاع، فاستدرجهم عامل البقاع إلى وسطه حيث أوقع بهم الهزيمة، ثم لحق بهم إلى المنيطرة وأخذ حصنها. فرّ بندار إلى طرابلس ولجأ إلى عسكر الروم، فنتج من ذلك تهجير المسيحيين من المنيطرة. هذا كان محرك رسالة الإمام الأوزاعي لإنصاف النصارى وإعادتهم إلى ديارهم. وهذه القصة هي أساس رواية ابن القلاعي عن ملك بسكنتا في جبل كسروان، وهي لا تبعد كثيرًا عن المنيطرة. ويرجّح هرب بندار إلى الروم أن الثائرين لم يكونوا من الموارنة[77].

يبقى هذا التحليل للصليبي، على قيمته الكبيرة، ناقصًا لأنه لم يأخذ في الاعتبار مصدرًا مهمًا سابقًا للبلاذري، هو ابن سلام الذي يقدم السبب العملي الذي اعتمده والي دمشق لمهاجمة الثائرين، وهذا ما اجتهدت في توضيحه في الجزء الأول من لبنان في القرون الوسطى، إذ يتهم ابن سلام النصارى بأنهم أقاموا في جبة المنيطرة حدثًا، أي بناءً دينيًا، وهم بذلك يخالفون شروط الذمة، فاقتضى الأمر تأديبهم[78].

يعيد الصليبي توضيح علاقة الموارنة بروما بصورة أدق مما جاء في أطروحته عن المؤرخين الموارنة، مقدمًا معلومات أوضح عن استفادة المناطق المارونية من الوجود الفرنجي الصليبي على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي. لكن بعض موارنة الداخل العالي، ومعظمهم من العشائر، تحفظوا تجاه الفرنجة، ولم يأنسوا للتنظيم الفيودالي الجديد (والصليبي يخطىء في تسميته بالنظام الإقطاعي) فتعاون موارنة أعالي لبنان مع أتابكة دمشق ضد فرنجة طرابلس في

(77) المصدر نفسه، ص 55-58.

(78) قطار، لبنان في القرون الوسطى، ص 75.

عام 1137م، وساهموا في قتل بونس (Pons) كونت طرابلس، فانتقم منهم ابنه ريموند (Raymond)[79].

يشير الصليبي إلى تقرّب الموارنة من روما منذ البطريرك يوسف الجرجسي، ولقاء أحبار الطائفة المارونية بموفد البابا في طرابلس في عهد البطريرك غريغوريوس الحالاتي، وتوقيعهم وثيقة الطاعة لكرسي روما. ويخبر عن قصة بطرس الكابوي (Pietro di Capua) في عام 1202م، التي تلاها بعد عشرة أعوام دعوة البطريرك أرميا العمشيتي لحضور مجمع اللاتران، ثم يروي قصة خروج موارنة جبة المنيطرة وناحية لحفد عن طاعة البطريرك دانيال الشاماتي، وثورتهم على الملك أي صاحب سنيورية جبيل الإمبرياتشي الجنوي. ولا جديد يذكر في كل ما سبق، لكن الصليبي يضيف تحليلًا جديدًا: ربما بدأت الثورة في زمن البطريرك أرميا، وهذا ما يفسر لجوءه من يانوح إلى دير سيدة ميفوق، ثم خلفه البطريرك دانيال في ميفوق واضطر إلى التنقل في أديرة عدة في ناحية البترون، ما يفيد بأن الفتن بين الموارنة كانت كثيرة[80].

ولا يقدم الصليبي جديدًا في قصة الانشقاق وانتخاب بطريركين: لوقا البنهراني عن المعارضين، وأرميا الدملصاوي من قبل الموالين للفرنج، ومسألة الإغارة على الحدث وتدميرها، وكذلك قصة المقدّم كامل الذي كان منضويًا في صفوف الفرسان الفرنج، والمقدّم سالم، وتسمية ابن القلاعي إياهم بالأمراء والملوك[81]. وبالنسبة إلى ما يرد في زجلية ابن القلاعي عن حملة عام 1291م، وخسارة المماليك أمام المقدّمين الموارنة في بلاد جبيل، فالجديد عند الصليبي تقديمه الإطار التاريخي للحملة بالاستناد إلى المقريزي[82]، لكن هذا مصدر متأخر قياسًا على المصادر التي واكبت الحملة، وهي تراجع في كتابنا نيابة طرابلس في عهد المماليك، منشورات الجامعة اللبنانية. أما ما جاء عن نكبة كسروان ودير مار شليطا فهو مقتبس نقلًا عن

(79) الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص 88-89.
(80) المصدر نفسه، ص 93-94.
(81) المصدر نفسه، ص 94-96.
(82) المصدر نفسه، ص 134.

المطران تادرس الماروني، فلا معلومات إضافية لدى الصليبي عنها[83]، وكذلك ما جاء عن البطريرك جبرائيل من حجولا وإعدامه بجوار طرابلس[84]. وفي قصة السلطان الهارب (برقوق) ودير قنوبين والمقدّم يعقوب، لا يقدم الصليبي جديدًا باستثناء توضيح المنفعة التي حصدها الموارنة في القرن الخامس عشر نتيجة العلاقة الوثيقة التي قامت منذ عهد السلطان برقوق بين الدولة وموارنة الجبة[85]، ولا جديد في مسألة قصادة الأخ غريفون، وإرسال ابن القلاعي للدراسة في روما، باستثناء وضع الموارنة في إطار مجمع فلورنسا، وما حدث بين نائب طرابلس والموفد البابوي الأخ جوان، وما نجم عن ذلك من نكبة دير ميفوق انتقامًا من عدم امتثال الأخ جوان لأوامر النائب، ما اضطر البطريرك يوحنا الجاجي إلى ترك ميفوق واللجوء إلى قنوبين بحماية المقدّم يعقوب بن أيوب[86].

إلى ذلك، لا جديد في قصة المقدّم عبد المنعم وانحيازه لليعقوبية، وحيثيات ما جرى وصراعه مع ابن القلاعي ومع الكنيسة المارونية، باستثناء تفصيلات مستقاة من البطريرك الدويهي، وبعض الشروحات التي تفسر غنى اليعاقبة ودور السلطة المملوكية بتقوية دور اليعاقبة في بلاد الشام وتشجيع الأقباط، وهم على مذهب واحد مع اليعاقبة، لإرسال بعثات كنسية إلى الممالك الشامية لدعم مركز اليعاقبة فيها، ولعل ذلك ما يفسّر وجود رهبان أحباش في دير مار يعقوب قرب إهدن، ولعل هذا كان من بين أسباب إقدام المقدّم يعقوب، وهو ممثل السلطة المملوكية، على دعم اليعاقبة والأحباش في جبة بشرّي[87].

يبدو أن المعلومات عن اليعاقبة الأحباش، الواردة عند الصليبي، وصراعهم مع الكنيسة المارونية بحاجة إلى تطوير كبير بعد المعلومات المكتشفة في وادي قنوبين وجواره عن هذه الجماعات، وهي تراجع في كتابي لبنان في عهد المماليك، الذي يصدر قريبًا عن منشورات جامعة الكسليك في لبنان.

---

(83) المصدر نفسه، ص 138.
(84) المصدر نفسه، ص 157.
(85) المصدر نفسه، ص 158-161.
(86) المصدر نفسه، ص 163-164.
(87) المصدر نفسه، ص 165-169.

ثالثًا: موقع كمال الصليبي في الواقع الحالي للدراسات في تاريخ لبنان الوسيط

في عام 1975، حصلت على منحة من الجامعة اللبنانية للدراسة في جامعة السوربون في فرنسا والتخصص في تاريخ لبنان الوسيط، فاخترت «المجتمع في الجبل اللبناني في عهد المماليك» موضوعًا لرسالة لدكتوراه. نتيجة لذلك، كان أول احتكاك لي بمؤلفات ومقالات الصليبي التي قرأتها بتمعن زائد، فقدّرت قيمتها العلمية وكانت مناسبة، من دون التعرف على الشخص، لاستيحاء مضمونها والاستفادة منها بشكل قاطع.

كانت الأطروحة مناسبة، كما يفترض العرف الجامعي، لتقديم معلومات جديدة وعدم تكرار ما سبق أن توصّل إليه آخرون، فكررت سلسلة من البحوث كانت تعوّل على ما توصل إليه كمال الصليبي، وفتح الباب أمام معلومات جديدة في تاريخ لبنان الوسيط، إما بالرجوع إلى مصادر لم يستفد منها الصليبي أو تقديم قراءة جديدة للمعلومات التي توصل إليها. تراجع هذه الإضافات الجذرية أحيانًا، والتكميلية أحيانًا أخرى، في الكتب أو المقالات التي نشرت، وهي:

- مؤرخ مجهول، **قواعد الآداب حفظ الأنساب**، تحقيق ونشر الياس قطار، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية؛ 35 (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 1986).

- الياس قطار، **نيابة طرابلس في عهد المماليك، 688-922هـ/ 1289-1515م**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية؛ 43 (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 1998).

- الياس قطار، **لبنان في القرون الوسطى** (بيروت: المؤلف، 2003)، ج 1: **من الفتح العربي-الإسلامي إلى الاحتلال الفرنجي** (صدر عام 2003)؛ ج 2: **عهد الفرنج: الصليبيين** (صدر عام 2008)، وج 3: **لبنان في عهد المماليك** (تحت الطبع).

- Elias Qattar, «Quelques Aspects de l'institution de l'iqta au Liban à la fin du Moyen-Age, le cas de la famille notable des Buhturs - Tanukhs,» *Hannon* (1978-1979), pp. 141-164.

- الياس قطار، «أضواء على بعض الملامح الاقتصادية-الاجتماعية للقرية اللبنانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر،» ورقة قُدِّمَت إلى: ندوة القرية اللبنانية، التي نظّمتها الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثاني، قسما التاريخ والجغرافيا، بين 23 و25 أيار/ مايو 1980، وقد نُشِرَت في: مجلة حنون (صادرة عن قسم الجغرافيا)، العددان 15-16 (1982-1984)، ص 11-12.

- الياس قطار، «بعض ملامح المقدّمية في جبل لبنان في أواخر القرون الوسطى،» مجلة وثائق وأبحاث، العدد 1 (1983)، ص 10-20.

- الياس قطار، «نماذج من الأوقاف في أواخر القرون الوسطى ومطلع العهد العثماني، وأهميتها في كتابة تاريخ لبنان،» ورقة قُدِّمَت إلى: المؤتمر الأول لأرشيف تاريخ لبنان، التي نظّمته الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الثاني، قسم التاريخ، بين 27 و29 نيسان/ أبريل 1983، وقد نُشِرَ في: مجلة دراسات (صادرة في كلية التربية في الجامعة اللبنانية)، العددان 13-14 (1984)، ص 277-297.

- الياس قطار، «أثر الغرب في فكر ومنهجية الدويهي على صعيد كتابة التاريخ،» مجلة المنارة للمرسلين اللبنانيين، السنة 25، العددان 1-2 (1984)، ص 127-138.

- الياس قطار، «المقدّمون والبطاركة الموارنة،» مجلة المنارة، السنة 27، العددان 1-2 (1985)، ص 179-200.

- الياس قطار، «مفهوم الوطن في آثار تلامذة مدرسة روما المارونية،» ورقة قُدِّمت إلى مؤتمر: الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس مدرسة روما (الكسليك: منشورات جامعة الكسليك، 1985)، ص 161-180.

- الياس قطار، «لبنان في القرون الوسطى: مصادر ومراجع،» مجلة إعلام وتوثيق (كلية الإعلام والتوثيق - الجامعة اللبنانية) (1986)، ص 4-21 و111-121.

- الياس قطار، «الشعب والأعيان في الطائفة المارونية قبل المجمع اللبناني،» مجلة المنارة، العدد 28 (1987)، ص 105-111.

- Karam Rizk, *Encyclopédie Maronite*, Série Institut d'Histoire (Kaslik - Liban: [n. pb.], 1992).

- الياس قطار، «مصادر تاريخ لبنان الوسيط،» مجلة الحداثة، العددان 7-8 (1995).

- الياس قطار، «الذهنيات في القرية اللبنانية في أواخر القرون الوسطى،» ورقة قُدِّمَت إلى: مؤتمر الجمعية التاريخية اللبنانية عن تاريخ الريف اللبناني الذي عُقِدَ عام 1996.

- «Description de l'Italie en général et de Gênes en particulier dans les sources arabes médiévales,» في: بحوث تاريخية مهداة إلى نقولا زيادة، إعداد وتنسيق الياس قطّار وأحمد حطيط (بيروت: منشورات فيلون لبنان، 1998).

- الياس قطار، «السكن في لبنان في القرون الوسطى،» مجلة دراسات (كلية التربية - الجامعة اللبنانية) (1997).

- الياس قطار، «مقدّميّة جبّة بشرّي في العهد العثماني،» ورقة قُدِّمت إلى: تاريخ جبّة بشري في العهد العثماني (بشري - بيروت: منشورات لجنة جبران الوطنية، 1998)، ص 303-328.

- Elias Qattar, «Géographie de la population et relations entre les groupes du Liban à l'époque des Mamelouks,» *Revue Aram*, nos. 9-10 (1997-1998), pp. 63-76.

- الياس قطار، «مجتمع الإمارة البحترية في عهد المماليك،» ورقة قُدِّمَت إلى: عبيه في التاريخ: وثائق المؤتمر التاريخي الأول لبلدة عبيه، 20-21 تشرين الثاني 1999 (بيروت: [د. ن.]، 1999)، ص 157-176.

- Elias Qattar, «Intérêt des sources arabes dans l'étude des relations libano-génoise du XIIIs au début du XVIs,» dans: *Storia, Arte, Archeologia del Libano* (Genova: Universita degli Studi di Genova, edizioni culturali internazionali, 1999), pp. 103-110.

- Elias Qattar, «Les Historiens Libanais du XV jusqu'à la fin du XIXS,» dans: *Quatre siècle de culture de liberté au Liban*, 2 Tomes (Beyrouth: Chemaly and Chemaly, 2006), pp. 593-620.

- الياس قطار، «لبنان في نصوص الرحالة الأجانب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر،» في: **لبنان في كتابات الرحّالة** (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 2008)، ص 117-128.

- الياس قطار، «البطريرك أسطفان الدويهي (1630-1704م): المفهوم الريادي والتحديثي في كتابة التاريخ،» ورقة قُدِّمَت إلى: **المكرّم البطريرك أسطفان الدويهي: وجهه الكهنوتي** (الكسليك: منشورات الكسليك، 2009)، ص 55-78.

- Elias Qattar, «Attitudes des groupes d'habitants envers le Comté de Tripoli,» dans: *Le Comté de Tripoli, etat multiculturel et multiconfessionnel (1102-1289)*, sous la direction de Gerard Dédéyan et Karam Rizk (Paris: Geuthner, 2010), pp. 31-44.

- الياس قطار، «الموارنة واليعاقبة والدروز في الجبل اللبناني في العهد المملوكي: جدلية الاضطهاد والتسامح،» في: **نحو تاريخ ثقافي للمرحلة المملوكية** (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، جامعة البلمند، 2010)، ص 3-27.

تخطى بعض هذه البحوث - أو بلور أكثر أو قدم إضاءة أشمل على - ما جاء في بحوث كمال الصليبي التي تبدو بشكل واضح إطارًا لا مفرّ منه لربط المعلومات وصوغها بشكل موضوعي. هذا بالنسبة إلي، أمّا بالنسبة إلى ما ورد عند المؤرخين الآخرين، فسعى عمر تدمري إلى تأريخ للبنان الوسيط ولطرابلس، وهو يستفيض في تقديم معلومات لا ترد عند الصليبي، لكن ينقصها التدقيق والتحليل حيث أن بحوثه تبقى عند مستوى التقميش.

كانت زجليات ابن القلاعي موضوعًا لبحث علمي أجراه المطران بطرس

الجميل[88]. وكانت مخطوطات ابن القلاعي كافة موضوعًا للدراسة الدكتور جوزيف مكرزل[89]، كما كانت بيروت موضوعًا لدراسة تستند إلى الأرشيف البندقي والإسباني[90].

وعلى الرغم من ذلك كلّه، يبقى كمال الصليبي المدرسة الموضوعية والوضعية لكتابة تاريخ لبنان الوسيط. فهو نقطة الانطلاق الحتمية لأي دراسة في هذا الباب، أي لبنان الوسيط، والحاضنة العلمية للإطار الصحيح والعلمي لهذا التاريخ.

---

(88) جبرائيل بن القلاعي، زجليات جبرائيل ابن القلاعي، دراسة وتحقيق بطرس الجميّل، أصول ومراجع تاريخية (بيروت: دار لحد خاطر، 1982).

(89) Joseph Moukarzel, *Gabriel Ibn Al-qila'i (d.1516): Approche biographique et étude du corpus*, préface de Gérard Troupeau, Library and of the Holy Spirit University, no. 51 (Kaslik: [n. pb.], 2007), p. 7.

(90) Pierre Moukarzel, *La Ville de Beyrouth sous la domination mamelouke (1291-1516) et son commerce avec l'Europe* (Beirut: Université d'Antonine, 2010).

الفصل الخامس

كمال الصليبي في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى

ناديا ماريا الشيخ

اشتهر كمال الصليبي بوصفه مؤرّخ لبنان، لذا كان الجمهور العام أقل اطلاعًا على نتاجه العلمي الذي تركز على التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى الممتدة بين بداية الإسلام في الجزيرة العربية وتاريخ بلاد الشام، إلى حين وصول الصليبيين، مرورًا بمجموعة متنوعة من الدراسات حول الفترة المملوكية. قدمت هذه الأعمال غالبًا قراءات بديلة، كان الصليبي سبّاقًا في طرحها. يعرض هذا البحث بعضًا من هذا الإنتاج الذي يتناول العصور الوسطى، مع تركيز خاص على تحليل الصليبي لبلاد الشام الإسلامية، وشبه الجزيرة العربية، ولبنان القروسطي.

أولًا: الإسلام في بلاد الشام

كان من المفترض أن يكون كتاب الصليبي **بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى: إمبراطورية في الميزان (634-1097)**، المنشور في عام 1977، الجزء الأول من ثلاثية تغطي الحقبة التاريخية منذ ظهور الإسلام في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، حتى انهيار الامبراطورية العثمانية في القرن العشرين[1]. يغطي هذا الكتاب الفترة الزمنية منذ ظهور الإسلام حتى وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام بنهاية القرن الحادي عشر.

إن اتّخاذ بلاد الشام باعتبارها وحدة تاريخية وجغرافية مقاربة تكاد تكون غائبة عن الكتابة التاريخية العربية، منذ **خطط الشام** لمحمد كرد علي، المنشور بين عامي 1925 و1928. وفي سبعينيات القرن العشرين، بدأت الجامعة الأردنية نشر بحوث المؤتمرات التي عقدت في إطار «لجنة تاريخ بلاد الشام» حول تاريخ

(1) Kamal Salibi, *Syria under Islam: Empire on Trial, 634-1097* (Delmar, N.Y.: Caravan Books, 1977).

هذه المنطقة. لكن هذه البحوث تتألف من مقالات فردية، تفتقر إلى أطروحة شاملة وتوليف جامع.

من أشهر المحاولات في اللغات الغربية حول تاريخ بلاد الشام في ظل الإسلام كتاب هنري لامنس *La Syrie. Precis historique*، الصادر في بيروت في عام 1921، وكتاب فيليب حتّي *History of Syria*، الصادر في لندن في عام 1951. على الرغم من أن ماريوس كانار وهاملتون غِب وكلود كاهن غطّوا في أعمالهم عددًا من الجوانب المختلفة في تاريخ بلاد الشام، جاء التوليف السبّاق الذي قدّمه الصليبي حول القرون الإسلامية الأولى في بلاد الشام مساهمةً قيمة في الدراسات التاريخية. قوّم الصليبي بعض هذه الأعمال السابقة، خصوصًا كتاب لامنس الذي بقي مرجعًا معياريًا في تاريخ بلاد الشام منذ الفتح العربي، وقال عنه في مقالة نشرها في عام 1962 إنه «يبقى أفضل كتاب عام موجود لتاريخ بلاد الشام، ويمثل مقاربة ذكية وقوية لهذا الموضوع، ويضع مختلف الحوادث والتطورات في إطار مثير للاهتمام». لكنه يلاحظ أن الكتاب يحتاج إلى مراجعة واسعة(2).

أثّر كتاب لامنس في الصليبي من نواحٍ عدة، خصوصًا تسليم لامنس بأن التضاريس الوعرة في بلاد الشام شكلت عائقًا أمام الوحدة السياسية. وكان كتاب الصليبي بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى مثل كتاب لامنس، بحثًا تفسيريًا لا مجرد مسح للحوادث التي وقعت في بلاد الشام.

يرجع غياب بلاد الشام عن التحليلات التاريخية المعنية بالفترة الإسلامية المبكرة إلى تسييس تحقيب التاريخ. ويشكّل تاريخ الأمويين (بين 661 و750م) استثناءً لأنه فترة تاريخية يستحيل فيها تجنّب التطرق إلى بلاد الشام التي كانت مركز الحوادث. أمّا في فترة ماقبل البعثة النبوية وبدايتها، فكانت شبه الجزيرة العربية مسرح الحوادث، في حين تركّزت الإمبراطورية الإسلامية في العصر الكلاسيكي في العراق وأجزاء من إيران. وبحسب أنطوان بوروت، «لم يكن لبلاد الشام سوى دور محدود بين هاتين الفترتين والفضائين [صدر الاسلام

---

(2) Kamal Salibi, «Islam and Syria in the Writing of Henri Lammens,» in: Bernard Lewis and P. M. Holt, eds., *Historians of the Middle East* (London: Oxford University Press, 1962), pp. 330-342.

والامبراطورية الاسلامية]، ولم يتح لبلاد الشام إلا أن تؤدي دورًا صغيرًا نوعًا ما، حيث جرى الاعتراف بذلك الإقليم كهدف أساس للفتح الإسلامي، قبل أن يصبح مقر السلطة الأموية. ويتزامن سقوط أول أسرة حاكمة في الإسلام مع اختفاء سوريا من السجلات التاريخية حتى مجيء ابن عساكر (توفي في عام 1176م)»[3].

لتعليل هذا الغياب، أو الجزء الأكبر منه، طبيعة تأريخية. فالتأريخ المعتمد هو نتاج المدرسة العراقية ومحوره العراق، وهذا ما يفسر الحيز المحدود الذي تحتله بلاد الشام في تواريخ أُنتج معظمها في القرنين التاسع والعاشر العباسيين. ولذلك، ليس «تلاشي» بلاد الشام مجرد مسألة جغرافيا وفضاء، بل مشكلة تحقيب: «فبلاد الشام المحصورة بماضيها الأمويّ كان لا بد أن تختفي من المشهد [.....] كي تفسح المجال أمام العباسيين، الذين كانت لهم مزاعم خاصة يريدونها أن تأخذ مكانتها»[4]. عكست الدراسات الحديثة التي كتبها أنطوان بوروت ونانسي خالق وبول كوب وآخرون هذا الاتجاه. لكن كتاب الصليبي الذي ظهر في أواخر سبعينيات القرن الماضي، سبق دراسات هؤلاء، مذكّرًا الأكاديميين والقرّاء عمومًا بضرورة الانتباه إلى التاريخ المحلي المفصّل لهذه المنطقة[5]. قدمت وداد القاضي مراجعةً مفصلة ودقيقة لكتاب الصليبي بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى بعد فترة قصيرة من صدوره، أشارت فيها إلى المشكلات التي ينطوي عليها مسعاه، خصوصًا أن عددًا كبيرًا من المصادر الأساسية كان مخطوطًا، ولا يزال، وخصّت

(3) Antoine Borrut, «Vanishing Syria: Periodization and Power in Early Islam,» *Der Islam*, vol. 91 (2014), pp. 37-68.

(4) المصدر نفسه.

(5) Antoine Borrut, *Entre Mémoire et pouvoir: L'espace Syrien sous les derniers Omeyyades et premiers Abbasides (v. 72-193/692-809)* (Leiden: Brill, 2011); Nancy Khalek, *Damascus after the Muslim Conquest: Text and Image in Early Islam* (New York: Oxford University Press, 2011); Paul Cobb, *White Banners: Contention in Abbasid Syria, 750-880* (Albany: Suny Press, 2001); Thierry Bianquis, *Damas et la Syrie sous la domination Fatimide, 359-468/969-1076* (Damascus: Presses de l'Ifpo, 1986); Pierre Canivet et Jean-Paul Rey-Coquais, eds., *La Syrie de Byzance à l'Islam, VII^ème-VIII^ème siècles*, Actes du colloque international Lyon-Maison de l'orient méditerranéen (Paris: Institut du monde arabe, 1990), and John F. Haldon, ed., *Money, Power and Politics in Early Islamic Syria: A Review of Current Debates* (Farnham, Surrey: Ashgate Publishing, 2010).

بالذكر كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وكتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم. وانتقدت القاضي استخدام الصليبي عددًا محدودًا من المصادر المنشورة التي تخص الفترة الأولى من تاريخه، وإهماله الرجوع إلى كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، وكتاب السِّيَر الكبير للشيباني. أمّا في تناوله بلاد الشام خلال العصر العباسي، فاعتمد الصليبي مصادر معاصرة أكثر غزارة واكتمالًا. وأشادت القاضي بمسعى الصليبي «الجريء» وإعادة صوغه مفهوم تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى على نحوٍ مستقل عن «التحقيب» التقليدي. وهذا واضح تمامًا في عناوين الفصول المختلفة، فالفصل الذي يغطي الحوادث في بلاد الشام، في العصر الأموي على سبيل المثال، يحمل العنوان «السلطان الهارب»، في حين ترد حوادث أوائل العصر العباسي في فصل بعنوان «القبلية في الصعود». أما الفصل الأخير، «الإمبراطورية في الميزان»، فيناقش العصر السلجوقي - الفاطمي قبل وصول الصليبيين[6].

يصف تمهيد كتاب بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى جغرافيا بلاد الشام وتضاريسها الوعرة التي تعيق الوحدة الداخلية، وتسهّل الفتح وتصعّب الإدارة. وتضاهي وعورة التضاريس هذه النزعات الانفصالية والعصبية الحزبية[7]. ويَلي عرض الصليبي المفصل لجغرافيا بلاد الشام التاريخية، أي مرتفعاتها ووديانها ومدنها وبلداتها، ملاحظات حول موقع بلاد الشام على مفترق طرق التجارة، فضلًا عن مكانتها «كأرض خصبة إلى جانب الصحراء»[8]. ويختم هذا العرض بوصف نوعين رئيسين من سكان الريف: العشائر (وهم الفلاحون القبليون)، والفلاحين (وهم فلاحو النظام الإقطاعي).

في فصول الكتاب الرئيسة، يروي الصليبي ويحلل الحوادث الكبرى التي طبعت القرون الأولى لبلاد الشام في ظل الإسلام. ويميل العمل إلى أن يغدو أكثر

(6) Wadad Al-Qadi, «Review of Syria under Islam: Empire on Trial, 634-1097,» *Al-Abhath*, no. 27 (1978-1979), pp. 165-175.

(7) كمال الصليبي، بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى، تحقيق كمال خولي وأنطوان نوفل، ط 2 (بيروت: مؤسسة نوفل، 2013)، ص 1.

(8) المصدر نفسه، ص 9.

تفصيلًا كلما تقدم زمنيًا، خصوصًا حين يبلغ الفصل الأخير الذي يتناول الهيمنة السلجوقية.

ثمة خيط رئيس يربط الفصول المختلفة ويشكل الموضوع الأساس في الكتاب، هو الصراع بين قوى الريف في بلاد الشام (خصوصًا البدو وفلاحي العشائر) الذين يوصفون بأنهم قوى الفوضى والاضطراب، وقوى المدن (النظام المركزي ومختلف الطبقات الحضرية)، وبعبارة أخرى قوى النظام والإدارة. يصور الصليبي مناخ الاضطراب العام مع صعود الإمارات - التي تقوم بضغط الثورات الداخلية والنزاعات بين الأمراء - وسقوطها. يفسر هذا الصراع سبب فشل الخلافتين الأموية والعباسية في الحفاظ على بلاد الشام، ويبلغ هذا الفشل ذروته مع اجتياح القرامطة ونشوء إمارات قبلية في القرنين العاشر والحادي عشر. يؤكد حضور القرامطة في بلاد الشام ووصول الحمدانيين إليها «القبلية الصاعدة»، وهو عنوان الفصل الذي يغطي الفترة بين عامي 906 و977م. ويكتسب تشديد الصليبي على القرامطة أهميته حيث يمنحهم تصويره المفصَّل، لا من حيث الصوت فحسب، بل أيضًا من حيث تقويمه الدور المهم الذي أدوه خلال هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام. ويرى الصليبي أن ظهور الصليبيين كان إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من تاريخ بلاد الشام، وهذا التحقيب الخاص لتاريخ هذه البلاد يقوده إلى إنهاء هذا الكتاب عند أواخر القرن الحادي عشر.

يجمع كتاب الصليبي مسارين للحوادث، مختلفين ومترابطين في الوقت نفسه: **الأول** مسار حوليات الإمبراطورية الإسلامية بفتوحاتها وصراعها مع القوى المنافسة، ومحاولتها إدخال الإدارة المركزية المنظّمة؛ والثاني مسار حوليات تلك الأرض بالذات، أي الحوادث الإقليمية المتصلة بصعود الإمارات وسقوطها ونمو المدن واضمحلالها، وثورات المدن والأرياف، والانتفاضات القبلية، وحركات المعارضة الدينية، والصدامات الطائفية، وما شابه ذلك[9]. لا يتوقف الصليبي عن الإلحاح على تبيان الارتباط الوثيق بين المسارين وضرورة التمعّن في دراستهما من أجل التوصل إلى فهم أشمل لقصة بلاد الشام في ظل الإسلام.

(9) المصدر نفسه، ص 12.

ثانيًا: جزيرة العرب موضوعًا للتاريخ

لا شك في أن التوراة جاءت من جزيرة العرب، المنشور في عام 1985، أكثر كتب الصليبي إثارة للجدل. فهو عمل يخلص إلى أن أسماء الأماكن في التوراة العبرية تعود إلى مواقع في جنوب غرب الجزيرة العربية. لكن بحوث الصليبي حول جزيرة العرب بدأت قبل ذلك، فكتابه تاريخ جزيرة العرب المنشور في عام 1980 يغطي تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ 3000 قبل الميلاد حتى سبعينيات القرن العشرين[10]. وهو كتاب غني بالمعلومات، إلّا أنني أحصر النقاش هنا بتناول المادة المتعلقة بفترة صدر الإسلام منذ ظهوره، وما طرأ على جزيرة العرب من تحولات خلال العصرين الأموي والعباسي.

مرة أخرى، تتمثّل واحدة من مساهمات الصليبي المهمة في إعادته النظر في التحقيب التقليدي. فهو يوضح أن تراث التأريخ الإسلامي يقسم تاريخ الجزيرة إلى فترتين رئيستين: ما قبل الإسلام وما بعده. وفي حين تشير الجاهلية إلى حقبة ما قبل الإسلام، خصوصًا العقود الأخيرة التي سبقت ظهور الإسلام، يلفت الصليبي الانتباه إلى أن التأريخ الإسلامي التقليدي أولى فترة ما بعد الإسلام في الجزيرة العربية اهتمامًا قليلًا نسبيًا. ويرجع ذلك، في رأيه، إلى أن جزيرة العرب لم تعد في موقع المركز في إثر الفتوحات الإسلامية وإقامة الدولة الإسلامية في بلاد الشام أولًا، وفي العراق ثانيًا. وباستثناء أهمية الحجاز الدينية، تهمّشت أهمية هذه المنطقة على المستوى السياسي.

ينتقد الصليبي التحقيب التقليدي، ويقترح بدلًا منه نظامًا أشدّ إحكامًا. فإضافة إلى مرحلة ظهور الإسلام الذي يشكل نقطة تحول كبرى في تاريخ الجزيرة، يشير الصليبي إلى مراحل تاريخية مهمة أخرى، مؤكدًا أن التطورات الداخلية في الجزيرة العربية تعكس تغير ميزان القوى في العالم المجاور، ويقترح انطلاقًا من ذلك تحقيبًا مبنيًا على صعود القوى الإمبراطورية التي كانت تسيطر على المناطق

(10) Kamal Salibi, *A History of Arabia* (Delmar, NY: Caravan Books, 1980).

المجاورة وسقوطها[11]. وهكذا يقسّم تاريخ جزيرة العرب بعد الإسلام تسع فترات تاريخية، تنتهي الأربع الأولى منها في عام 1500.

يناقض الصليبي في كتابه تاريخ جزيرة العرب المفاهيم والتصورات الشعبية السائدة. فهو لا يعتبر التعريفات والمفهومات مسلماتٍ مفروغًا منها، ولا يكف عن مساءلة مصطلحات محددة، بل يفسرها في سياقها الجغرافي والتاريخي والنصيّ. فهو يعيد النظر، على سبيل المثال، في مفهوم الجاهلية الذي لا يزال موضع جدال[12]. فماذا عنى المسلمون الأوائل بالجاهلية؟ وهل تشير الجاهلية إلى زمان أو مكان معين؟ هل هي نقيض العلم أم الحِلم؟ هل هي حالة معاكسة للإسلام والدولة والقانون؟

الجاهلية، وفقًا للصليبي، تعبير جاء به القرآن ويعني «الخصومة القبلية» أو «النزاع القبلي»، وينطبق أولًا وقبل أي أمر آخر على المدة من تاريخ الجزيرة العربية التي سبقت ظهور الإسلام مباشرة[13].

يفهم الصليبي الجاهلية في إطار معناها القرآني السياقي/ النصي، في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، أنها لا تعني عصر الجهل، وإنما مدةً من الصراع قبل الإسلام، أي الحروب الجاهلية التي يفهمها باعتبارها جزءًا من الصراع على السلطة بين الممالك العربية الشمالية الواقعة في فلك النفوذ البيزنطي أو الساساني. ونتج عن ذلك وضع معقد هيأ الأرضية للجاهلية التي يقول الصليبي إنها عصر الصراعات القبلية الكبرى الذي انتهى مع صعود الإسلام[14].

يأتي إدراك الصليبي الحاد لأهمية الجغرافيا في فهم التطورات التاريخية في مقدمة تحليله، ويشمل الأساس الجغرافي والوضع البيئي اللذين يفسران الميل إلى الرعي والفرص الزراعية، و«الأهمية القصوى للتجارة» التي يشدد عليها الصليبي

(11) الصليبي، بلاد الشام، ص 14.

(12) انظر: Peter Webb, «Al-Jahiliyya: Uncertain Times of Uncertain Meanings,» *Der Islam*, no. 9 (2014), pp. 69-94.

(13) الصليبي، بلاد الشام، ص 12.

(14) المصدر نفسه، ص 67.

منذ البداية[15]. يضع كتاب الصلبيي تاريخ جزيرة العرب البحر الأحمر والتبادل الاقتصادي الذي جرى في غرب آسيا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط في سياق عالمي، مشددًا على القضايا الاقتصادية المتعلقة بالتجارة الدولية، مبينًا الأساس النظري لأطروحته في المقدمة: «إن وجود دولة قوية في بلاد ما بين النهرين أو بلاد فارس [.....] أمّن الممر البحري من المحيط الهندي إلى هذه الأراضي، وجلب الازدهار لموانئ شرقي الجزيرة العربية والمناطق التي تليها في الداخل؛ ومن الطبيعي أنه كان لتراجع سلطة الدولة في بلاد ما بين النهرين أو بلاد فارس أثر معاكس. من جهة أخرى، عزز وجود دولة قوية في بلاد الشام أو مصر أهمية التجارة بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر. وهذا ما جلب الازدهار إلى جنوب جزيرة العرب وغربها...»[16].

إن أهمية الدول الكبرى بالنسبة إلى التاريخ الإقليمي/ المحلي لجزيرة العرب هي أمر أساس في تحليل الصليبي لتاريخها خلال الفترة الإسلامية. فهو يناقش ظهور الإسلام، على سبيل المثال، في سياق الحرب الإقليمية التي دارت بين الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية في العقود الأولى من القرن السابع الميلادي. وثمة إشارة إلى هذه الحروب في القرآن الكريم، فالآيات الافتتاحية من سورة الروم، تقول: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّـهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّـهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[17].

عند اعتلاء الإمبراطور هرقل العرش (بين 610 و641م)، كان الفرس يهددون بيزنطة من الشرق. وفي عام 611 ميلادية، غزوا بلاد الشام واستولوا على أنطاكية، المدينة الرئيسة في المقاطعات البيزنطية الشرقية، ثم على دمشق. وفي عام 614 ميلادية، استولوا على القدس ونهبوها. شكلت خسارة المدينة المقدسة صدمة كبيرة للبيزنطيين، فاقم أثرها نقل بقايا الصليب الحقيقي إلى المدائن. لكن

(15) المصدر نفسه، ص 8.

(16) المصدر نفسه، ص 11.

(17) القرآن الكريم، «سورة الروم،» الآيات 1-5.

تقدم الفرس لم يتوقف عند هذا الحد، فاحتلوا مصر بين عامي 617 و619م. وأخيرًا، عمد هرقل إلى شنّ الهجوم المضادّ مسيّرًا الحملات ضد الفرس، وموقعًا الهزيمة أخيرًا بالجيش الفارسي قرب نينوى في عام 627م، حيث خُلع كسرى ملك الفرس عن العرش وقُتل. وعادت مقاطعات سوريا وفلسطين ومصر، إضافة إلى الصليب الحقيقي، إلى الإمبراطورية البيزنطية.

لا يخفى على أحد عظم شأن هذه الحروب وأهميتها، لأنها أعادت طرح مسألة الحدود والولاءات في جزيرة العرب. وكان عرب شبه الجزيرة أسرى التوتر القائم بين القوى العظمى في ذلك الزمن، ويبدو أن تلك الحروب أدّت، على نحو ما تبيّن كتب التفسير، إلى حدوث انشقاق داخل قريش - قبيلة النبي محمد - باعد بين من فضلوا فوز الفرس ومن منّوا أنفسهم بالنصر البيزنطي. ويشير الصليبي إلى أن الجماعة الإسلامية الناشئة «كانت مصممة على أن تختلف عن قريش، ليس فقط في الدين والنظرة الاجتماعية، ولكن أيضًا في السياسة الخارجية»(18). وواقع الأمر أن الصليبي يربط انتصار محمد بنصر بيزنطة على الفرس في عام 628م، مقدمًا بذلك مثالًا رئيسًا على منطلقه النظري المتمثل في علاقة تكاد تكون جدلية بين العوامل الخارجية/ الداخلية، في تشكيل تاريخ شبه الجزيرة العربية.

إن نجاح الأمة الإسلامية في جزيرة العرب الذى أدّى إلى قيام إمبراطورية كبرى هو الذي قاد إلى تهميش هذه الجزيرة، إذ انتقل مركز الخلافة من المدينة المنورة في الحجاز إلى دمشق، ولم يعد مذّاك إلى جزيرة العرب التي تأكّل مركزها في إثر ذلك، وأصبحت المدينة المنورة مع مرور الزمن في موقع هامشي، مكانًا للتقاعد السياسي، لكن بقيت مركزًا للعلوم الإسلامية.

مهم لفت الانتباه إلى أن الصليبي في هذا الكتاب ليس معنيًا بقصة الإسلام الكبرى، بل بقصة جزيرة العرب، لذلك يخصص باقي عرضه لما تبقى من العصور الإسلامية الأولى للحوادث الكبرى التي كان مسرحها جزيرة العرب، ولا سيما ثورة عبد الله بن الزبير في عام 680م، وثورة زيد في وقت لاحق في عام 740م،

(18) الصليبي، بلاد الشام، ص 78.

وثورة محمد النفس الزكية نحو عام 762م. ويرى الصليبي أن هذه الثورة هي «آخر محاولة للحجاز لاستعادة هيمنته المفقودة على العالم الإسلامي»[19]. تكررت الانتفاضات السياسية المحلية في اليمن على البحر الأحمر، وفي عمان على الخليج العربي. ويشكل تسليط الضوء على هذه المناطق النائية من جزيرة العرب نقطة أخرى من نقاط القوة في هذا الكتاب. ومن جديد، يقيم الصليبي صلةً بين هذه التطورات وتحولات التجارة الدولية على طول البحر الأحمر أو الخليج العربي. وهكذا، أدى نجاح الفتوحات الإسلامية إلى فتح طرق التجارة المباشرة بين الشرق والغرب، ما سمح بتجاوز جزيرة العرب وتحويل البحر الأحمر إلى «مياه خلفية راكدة»[20]، وهذا ما دفع بأهل المنطقة إلى التمرد والاحتجاج.

يقدّم تاريخ جزيرة العرب نظرة بالغة الأهمية، إذ يشير في روايته المفصّلة إلى أن الجزيرة العربية لم تكن قطّ منطقة معزولة ونائية، بل كانت على الدوام عرضةً لقوى خارجية وشكلت جزءًا لا يتجزأ من العالم المحيط بها. يجهد الصليبي، في مختلف الأجزاء التاريخية من عرضه المفصل، في توضيح الكيفية التي تضافرت بها التحولات في أنماط التجارة الدولية، مع عدد من العوامل الاقتصادية والسياسية، كي تؤثّر في مجريات الأحوال في مناطق مختلفة في الجزيرة العربية.

ثالثًا: موارنة لبنان في العصور الوسطى

كانت مساهمة الصليبي الكبرى في حقل تاريخ لبنان، الذي أعود إليه الآن، إذ تناول باكورة مؤلفاته التأريخ الماروني الذي قرّظه واعتبر أن لا غنى لمؤرخي لبنان عنه في العصور الوسطى ابتداءً من القرن الثاني عشر. فالتأريخ الماروني حاسم في تأثيره في فهم التطورات داخل الطائفة المارونية، وتحديدًا علاقاتها المتنامية مع روما واندماجها التدرّجي في الجسم السياسي اللبناني[21]. كان الصليبي واحدًا من المؤرخين الأوائل الذين أولوا نقد هذه الأعمال اهتمامهم، مشكّكًا في

(19) المصدر نفسه، ص 93.

(20) المصدر نفسه، ص 98.

(21) Kamal Salibi, «The Traditional Historiography of the Maronites,» in: Lewis and Holt, pp. 212-225.

صدقيتها وصلاح استخدامها كأعمال مرجعية. وما أضفى مزيدًا من الأهمية على عمله هذا أن اهتمام المؤرخين العرب، الذين كتبوا تاريخ العهود الزنكية والأيوبية والمملوكية في هذه المنطقة الحدودية وسكانها الهراطقة الخارجين على سلطة الدولة، كان هامشيًا؛ إذ لم يولوا تاريخها الداخلي الانتباه الكافي.

تحليل الصليبي النقدي لتراث التأريخ الماروني قاده إلى الاستنتاج الآتي: لم تتح عزلة الموارنة لهم يومًا أن يفهموا على نحو واضح «علاقة تاريخ الموارنة ولبنان بتاريخ بلاد الشام الإسلامية والإسلام». كان ثمة اتجاه آخر في التراث التأريخي الماروني هو اتجاه المبالغة في تاريخ الطائفة المحلي والانتقاص من الإطار الإقليمي، إلى جانب اعتماد الموارنة أنفسهم المطلق على المؤرخين من أسلافهم الموارنة، وهذا ما أبعد أعمالهم عن النقد، وهذا هو العيب الأكبر في تأريخهم[22].

يركّز الصليبي على تاريخ الموارنة مع وصول الصليبيين، فندرة المعلومات عن الفترة السابقة لا تسمح بالبحث في هذا التاريخ على نحو مجدٍ. كما يحلل الصليبي تاريخ موارنة شمال لبنان في العصور الوسطى في ظل حكم الفرنجة والمماليك، آخذًا في الاعتبار محدودية المصادر المتاحة. ويعبّر عن فهمه لتداخل المحلي في الإقليمي/ الدولي، ويصر على أنّ «لا يمكن فهم تاريخ الموارنة إلا عندما يُنظر إليه في إطار السياسة الصليبية والمسيحية الغربية ومصالحها في بلاد الشام».[23] مع مجيء الصليبيين إلى الشرق، أصبح لتاريخ الموارنة «بداية جديدة»، على حد تعبير كمال الصليبي، ويجب عدم الاستهانة بأهمية الصليبيين بالنسبة إلى الموارنة: فلولا حضورهم وتحالفهم مع الموارنة، لبقي هؤلاء طائفة هامشية من دون مبرر لوجودها. ويمحّص الصليبي المصادر المارونية المتاحة، ولا سيما العمل الماروني المبكر لجبرائيل القلاعي (توفي في عام 1516م) الذي كتب التاريخ في زجلية يروي فيها أساطير بطولات زعماء الجبل. كما يعتبر

---

(22) المصدر نفسه.

(23) Kamal Salibi, «The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk Rule,» *Arabica*, no. 4 (1957), pp. 288-303.

الصليبي هؤلاء الزعماء النماذج الأصلية للزعماء الموارنة الذين قاتلوا إلى جانب كونتية طرابلس، والذين ساهمت مساعدتهم العسكرية لهذه الكونتية في صدّ هجمات المسلمين بنجاح.

توازيًا مع المصادر المارونية المحلية، بما فيها تاريخ البطريرك إسطفان الدويهي (توفي في عام 1704م) الذي كان المحاولة الأولى لكتابة تاريخ الطائفة المارونية منذ بداياتها وحتى أيامه، استعان الصليبي بالمصادر المملوكية «المركزية» العربية كي يقوّم وعي المماليك بالأهمية الاستراتيجية للمناطق الجبلية العليا في منطقة طرابلس، وفاعلية مقاتلي الموارنة في حمايتها. ولا يفوت الصليبي أن يشير إلى أن الموارنة لم يكونوا جميعًا ودومًا على علاقة ودّ بالصليبيين، ومع ذلك مثّل سقوط طرابلس الصليبية كارثة للموارنة الذين دخل تاريخهم منعطفًا حادًا في عهد المماليك، إذ باتوا «طائفة من طريدي الجبال» بعدما كانوا الأعلى حظوة بين الطوائف المحلية في ظل الفرنجة.

جُرّدت حملات عسكرية متكررة ضد كسروان وجبّة بشرّي، وكان أن تمّ للماليك النصر الكامل في عام 1306م، واقتُطِعت قرى الموارنة لأمراء المماليك في دمشق. وبحلول أواخر القرن الرابع عشر، يبدو أن نشاط الموارنة دخل تحت السيطرة الكاملة لعمّال المماليك الذين تركوهم لشأنهم، شريطة دفعهم الضرائب المستحقة عليهم، وسرعان ما استأنف الموارنة «عداواتهم التافهة ومشاجراتهم[24]».

لا ينفك الصليبي يفسّر المحلي إزاء الإقليمي: فهو يرى أن التاريخ السياسي لموارنة لبنان خلال هذه الفترة هو في الأساس تاريخ علاقاتهم مع السلطة الحاكمة. وهو لا يرى سوى القليل من عناصر الوحدة بين الموارنة. ومع أنه يبرز ولاءهم العام للبطريرك، فإنه يعتبر أن روما هي التي «نجحت في إدخال عنصر الوحدة المُفتَقَد، وحولت الموارنة إلى تلك الطائفة المتماسكة التي أدت دورًا قياديًا في تاريخ لبنان[25]».

(24) المصدر نفسه.

(25) المصدر نفسه.

في دراسته موارنة منطقة جبّة بشرّي في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني، يصف الصليبي بشرّي بأنها بعيدة لا تعمر بالسكّان إلا صيفًا، كما يصف نزاعاتها على المراعي الجبلية المرتفعة، وجغرافيتها واعتمادها الاقتصادي على طرابلس.

ويُبرز الصليبي حدثًا لافتًا هو الاضطهاد الديني لموارنة جبل لبنان ابتداءً من عام 1365م، والذي بلغ ذروته بإعدام البطريرك الماروني في عام 1367م. أدت تلك الحوادث التي بذرت الاضطراب في الجبل في عام 1382م إلى ظهور يعقوب بن أيوب القوي الذي بسط نفوذه على كامل منطقة بشرّي بفضل اعتراف المماليك به، إذ عيّنوه وكيلًا لهم، يجمع الضرائب لحسابهم ويحفظ النظام. ومع صعود نجم يعقوب، اكتسبت بشرّي أهميةً خاصة بين المناطق المارونية في شمال لبنان، فانتقل البطريرك الماروني للإقامة في قنّوبين تحت حماية مقدّم بشرّي في عام 1440م. كما توارثت ذرّية يعقوب مقدّمية بشرّي على مدى قرن كامل منذ ذلك الحين. ويُذكَر حكم المقدّمين الأوائل بأنه عهد ازدهار واستقرار. وكان هذا الازدهار النسبي بين الأسباب التي أدت بالمسيحيين من غير الموارنة إلى الهجرة نحو الجبّة طلبًا للأمن. غير أن الصراع الديني لم يلبث أن تفجّر في عام 1488م بين الموارنة واليعاقبة في المنطقة[26].

توّج الصليبي أعماله الأولى حول موارنة لبنان في القرون الوسطى بكتابه **منطلق تاريخ لبنان** الذي صدر في عام 1979[27]. ويصرّ الصليبي في ملاحظاته الافتتاحية في هذا الكتاب على أننا كي نفهم تاريخ لبنان في العصور الوسطى لا بد من فهم الإطار التاريخي العام، وبشكل أكثر تحديدًا تاريخ بلاد الشام، لأنّ تاريخ لبنان خلال تلك الفترة «ليس سوى جزء من تاريخ بلاد الشام». ويؤكد، كعادته في كتبه الأخرى عن بلاد الشام وجزيرة العرب، أهمية العوامل الجغرافية التي تنظم هذه التطورات التاريخية[28].

---

(26) Kamal Salibi, «The Muqaddams of Bsharri: Maronite Chieftains of the Northern Lebanon, 1382-1621,» *Arabica*, no. 15 (1968), pp. 63-86.

(27) كمال الصليبي، **منطلق تاريخ لبنان، 634-1516** (بيروت: دار نوفل، 1979).

(28) الصليبي، **بلاد الشام**، ص 23.

وكما هو الحال في جميع كتب الصليبي السابقة، يبدأ هنا أيضًا برسم حدود المنطقة موضوع الدراسة. ويواصل بعد ذلك ليقدّم لمحة عامة عن تاريخ هذه المنطقة حتى الفتح الإسلامي لبلاد الشام مع معركة اليرموك الحاسمة في عام 636م. ويركز الفصل الثاني على العصور الإسلامية الأولى، أي «عهد الخلفاء» الممتد بين عامي 634 و1070م؛ أمّا الفصل الثالث فيسلط الضوء على الموارنة والدروز بين عامي 1070 و1291م، في حين يتناول الفصل الرابع لبنان ومحيطه خلال العهد المملوكي، بين عامي 1291 و1516م.

يتناول الصليبي على نحو منفصل تاريخ المناطق المختلفة، وهذه طريقة مفيدة تتيح له تقديم معلومات ثمينة عن ماضي مناطق مهمشة أهملها التأريخ طويلًا. وفي هذا الكتاب، يهاجم كمال الصليبي أولًا التفسيرات الطائفية المختلفة بشكل مباشر، ويبلغ هذا الهجوم مداه الأقصى بعد عقد من الزمن، في كتابه **بيت بمنازل كثيرة: إعادة النظر في تاريخ لبنان**. كان التفسير الطائفي الأكثر إحكامًا وتفصيلًا بين التفسيرات الطائفية هو ذاك الذي طوّره المؤرخون الموارنة، ويفضح الصليبي الزيف في ثلاثة عناصر أساسية في الرواية التقليدية: **الأول**، يرفض أي دليل على صلة مزعومة بين الموارنة والمردة، مشيرًا بدلًا من ذلك إلى أن قيام الكنيسة المارونية يُعزى جزئيًا إلى التعارض بين رجال الدين القرويين العرب ذوي الرتب المنخفضة ورجال الدين اليونانيين الحضريين (ص 39)؛ **الثاني**، يرفض الصليبي أن يرد وصول الطائفة المارونية إلى جبل لبنان إلى الاضطهاد الإسلامي المتكرر، بل يرد ذلك إلى الحملات العقابية التي شنها البيزنطيون على المسيحيين الذين تمسكوا ببدعة مشيئة المسيح الواحدة، فكانت أولاها في القرن السابع (ص 44)، ثم تكررت في القرنين العاشر والحادي عشر: «كانت الهجمات البيزنطية المتكررة على هذه المناطق خلال هذه الفترة هي التي أدت إلى فرار الموارنة نهائيًا من مناطق حمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان» (ص 64)؛ **والثالث**، يرى الصليبي أن لا شيء يثبت حفاظ الكنيسة المارونية على علاقات مباشرة بروما قبل القرن الثاني عشر (ص 91–93)، خصوصًا أن مسألة علاقة الموارنة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية استحوذ على كثير من جهود المؤرخين الموارنة.

كان منطلق تاريخ لبنان في الأساس عملًا يهدف إلى فضح الزيف في تاريخ موروث من أجل صوغ فهم جديد لتاريخ لبنان في القرون الوسطى، ولدور الطائفة المارونية وموقعها في ذلك التاريخ. وبحسب أنطوان عبد النور، نجح الصليبي في هذا الكتاب في إقامة تاريخ جديد للطائفة المارونية، تاريخ جريء ومغرٍ في آن معًا[29].

خاتمة

على غرار التحدي الذي واجه به الصليبي حقل تاريخ لبنان بأكمله، خصوصًا في تحفته بيت بمنازل كثيرة، قدّم في الأعمال التي ناقشتها هذه الدراسة تواريخ بديلة وقراءات ثورية، تتكئ إلى نصوص تاريخية استخدمت بطريقة خلّاقة، إذ يطرح علينا أسئلة جديدة، محاولًا الاستفزاز ليضطرنا إلى إعادة التفكير. عمَلُ الصليبي هو في جوهره مراجعة وتنقيح، يُسائل الأطر المفهومية والتقسيمات التاريخية، ويوفر مقاربات جديدة وأنماطًا جديدة من التحليل.

إن تقدير الصليبي أهمية الجغرافيا التاريخية هو ما دفعه إلى كتابة دراسات حول بلاد الشام وجزيرة العرب ولبنان، تسلّط الضوء بشكل خاص على هذه الكيانات الجغرافية. وتشمل كتبه الثلاثة ملاحظات تمهيدية في الجغرافيا والتضاريس والسكان خاصة بالكيان موضوع الدرس. ويبقى وعي الصليبي بأهمية الجغرافيا فريدًا من نوعه إلى حدّ ما، ويشكل واحدًا من أهم ما خلّف لنا.

يمكن تقدير عمل الصليبي في العصور الإسلامية الأولى وصولًا إلى الفتح العثماني للشرق الأدنى حقّ قدره إذا نظرنا إليه على أنه مقالات تفسيرية، لا روايات تاريخية تقليدية، ولا سيما حين نتنبه إلى تأكيده على الأهمية المحورية للجغرافيا والتجارة الدولية، فضلًا عن تشديده على أهمية تحليل المحلي والإقليمي والمركزي في آن معًا.

---

(29) انظر: Antoine Abdel Nour, «Muntalaq Tarikh Lubnan; aux origines de l'histoire libanaise, 634-1516,» *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, no. 35 (1980), pp. 834-836.

في الحقيقة، من السمات البارزة للصليبي كمؤرخ أنه لا يغرق ولا يضيع في غمرة التفصيلات التاريخية، بل يحاول دومًا تقديم تفسير عام.

وفي كتبه ومقالاته كلّها، تضفي منهجية الصليبي الواضحة تماسكًا على اللوحة العامة، مهما تكن الحوادث معقدة ومتسارعة، إذ قصد لكتابته، منذ بداية حياته المهنية، أن تكون في متناول جمهور يشمل غير المتخصصين وغير الأكاديميين. لذلك، يتدفق نثره بسلاسة، حتى ولو انطوى على كمٍّ وافر من المعلومات.

عالجت هنا جوانب معينة من إنتاج الصليبي الذي تناول العصور الوسطى، إلّا أن نتاجه يشمل أوجهًا أخرى من التاريخ الإسلامي. وهذا واضح، على سبيل المثال، في اهتمامه بالتاريخ الداخلي للمماليك؛ إذ تناول أحد أوائل البحوث التي نشرها الصليبي أسرة من فقهاء الشافعية، هم بنو جماعة، عرب مسلمون من أهل البلد (مصر)، تبوّأوا في منتصف القرن الثالث عشر مناصب رفيعة في الإدارتين الدينية والقضائية، وهما إدارتان لم يكن المماليك مهيّئين لهما. احتكر بنو جماعة العلوم الإسلامية خلال أجيال عدة، وكرّسوا أنفسهم طبقة عليا خاصة، وأصبحوا الأسرة الشافعية المهيمنة في الدولة المملوكية بين عامي 1291 و1383م، وتتبع الصليبي هذه الأسرة في القاهرة ودمشق والقدس[30].

مساهمة الصليبي في دراسة تاريخ صدر الإسلام وصولًا إلى الفترة المملوكية المتأخرة متنوعة وقيّمة، لا يمكن إنكارها. وفي حين أولَت معظم الأعمال التاريخية الجانب المركزي اهتمامها، كان الصليبي رائدًا في تسليط الضوء على الجانبين الإقليمي والمحلي، وربط الحوادث السياسية والعسكرية بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، مقدّمًا تحقيبًا بديلًا، محتفظًا بمقاربته في إعادة النظر إلى الحد الأقصى.

---

(30) Kamal Salibi, «The Banu Jama'a: A Dynasty of Shafi'ite Jurists in the Mamluk Period,» *Studia Islamica*, no. 9 (1958), pp. 97-109.

الفصل السادس

جغرافية التوراة ونظرية الصليبي
مقاربة تمهيدية من منظور عربي - إسلامي
مسألة العماليق مثالاً(*)

عبد الرحمن محمود شمس الدين

(*) شكر كبير إلى الصديق والأخ الأعز رامي أبو علفا، لمساعدته ودعمه المستمر ومتابعاته الجغرافية، منذ صباح يوم أحد في صيف عام 2000 عندما أيقظني ليعطيني أوّل كتاب أقرأه للدكتور كمال الصليبي، وحتى كتابة هذه الدراسة.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1]. يقول الطبري في تفسيره، نقلاً عن كثير من الرواة أو أهل التأويل كما يحب أن يطلق عليهم الطبري نفسه، إن «يعرشون» الواردة في الآية 137 من سورة الأعراف معناها «يبنون»، «وأما في قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾، فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخربنا جميع ذلك»[2].

قبل الدخول في بحث معنى الآية، لا بد من أن يتساءل المتأمل فيها وفي ما تعنيه عن الدمار الذي يقصده القرآن الكريم، صحّ تفسير الطبري لكلمة يعرشون أم لم يصحّ. فإن صوت الدمار الصادر عن هذه الآية الكريمة واضح لكل قارئ وسامع. فإذا اعتمدنا الرواية الإسرائيلية السائدة لقصة بني اسرائيل وفرعون، فأول ما يخطر لنا هو أن ما كان عرضة للدمار هو مصر الفرعونية التي سكنها قدماء المصريين وعمروها قرونًا طويلة[3]، وما زالت آثارهم شامخة فيها تشهد على عظمة عمرانهم. فعن اي دمار يتحدث القرآن؟

(1) القرآن الكريم، «سورة الأعراف،» الآية 137.

(2) انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقّقه وعلّق حواشيه محمود محمد شاكر، سلسلة تراث الإسلام، 15 ج (القاهرة: دار المعارف، 1374-1378هـ [1954-1958م]).

(3) انظر: أدولف أرمان، ديانة مصر القديمة: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، سلسلة صفحات من تاريخ مصر الفرعونية (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1995)، ص 152.

أولًا: من هو فرعون الخروج؟

يقول قائل إن الدمار لحق بذاك الفرعون المذكور في القصة تحديدًا، هو وقومه، وإن الآية لا تعم الفراعنة جميعهم. وربما يقول آخر إن الدمار لحق بسلطة فرعون على بني اسرائيل، وهي مسألة معنوية، وليست حسية كدمار الأبنية والعمران. وفي الحقيقة أن كل ذلك وارد لولا أن المفسرين اختلفوا في تحديد مكان الأرض المقصودة بالجزء الأول من الآية نفسها، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾، وهي الأرض التي ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾. لكن الآية توحي بأن بني إسرائيل ورثوها عن فرعون وقومه، وإذا اعتبرنا مجددًا أن أرض فرعون هي مصر الفرعونية فإننا، بلا شك، سنتساءل عن وراثة بني اسرائيل إياها. فلم يسجَّل على مر التاريخ أن اليهود العبرانيين ملكوا على أرض مصر أو وادي النيل، بل يذهب يوسف زيدان إلى أبعد من ذلك في كتابه اللاهوت العربي، فيقول: «في النصوص المصرية القديمة، على كثرتها التي تكاد تخرج عن الحصر، لم ترد أي إشارة أو تلميح إلى أن اليهود (العبرانيين) كانوا يسكنون بمصر القديمة. والإشارة الوحيدة غير الواضحة، الواردة في لوح مرنبتاح[*]، تفيد بأن هذا الفرعون قام بتأديب العبرانيين الساكنين بالصحراء الجرداء المجاورة لمصر»[4].

من المستغرب فعلًا أن لا يكون هناك أي ذكر لليهود العبرانيين في النصوص المصرية القديمة، خصوصًا إن كثيرًا من الحضارة المصرية قد دُوِّن، ولا بد لحدث بضخامة العبور وأهميته مثلًا أن تظهر وبقوة في التاريخ المصري القديم. فهذا الحدث يؤرخ نهاية أحد الملوك الذي صورت التوراة غرقه ومن معه من جند وفرسان بشكل واضح: «فمدّ موسى يده على البحر، فارتد البحر عند انبثاق الصبح إلى ما كان عليه، والمصريون هاربون نحوه. فدحر الرب المصريين في

(*) لوح تذكاري لمرنبتاح فرعون مصر، يؤرّخ انتصار الفرعون أمنحتب الثالث في بلاد الشام، ويذكر قبائل إسرائيل.

(4) يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني (القاهرة: دار الشروق، 2010)، ص 54.

وسط البحر. ورجعت المياه فغطّت مراكب جيش فرعون كله وفرسانه الداخلين وراءهم في البحر، ولم يبقَ منهم أحد»[5].

وفي محاولة لتحديد هوية فرعون العبور، يقدم عالم الأثار المصرية الشهير زاهي حواس دليلًا واضحًا على غياب الأدلة الثابتة لمثل هذا الحدث في التاريخ المصري القديم: «نحن إذًا نتحدث عن فرعون عاش وحكم مدة طويلة. ومثل هؤلاء في التاريخ الفرعوني القديم قليل، مثل الملك 'بيبي الثاني' الذي عاش أكثر من ثمانين عامًا. ولا يمكن أن تكون قصة موسى حدثت في الدولة القديمة، حيث يتفق علماء المصريات والتاريخ أن موسى وبني إسرائيل عاصروا الدولة الحديثة بعد 1550 قبل الميلاد، خصوصًا بعدما أجمع هؤلاء العلماء على أن العبرانيين جاؤوا إلى مصر مع قبائل الهكسوس بعد الدولة الوسطى، وعاشوا في ما نسميه عصر الاضطراب الثاني، وبالتالي لا بد من أن يكون فرعون الخروج أحد ملوك الدولة الحديثة. والملك الوحيد الذي عاش عمرًا مديدًا وحكم نحو 66 عامًا هو الملك رمسيس الثاني، الذي يميل معظم الباحثين - واليهود أنفسهم وصانعة أفلام هوليوود - إلى اعتباره فرعونَ الخروج. وأنا شخصيًا، لا أستطيع تحديد هوية فرعون الخروج من دون وجود دليل لغوي أو أدلة أثرية تثبت ذلك، لكن أستطيع أن أقول إن السبب الذي منع الفراعنة من الحديث عن أنبياء الله الذين زاروا مصر، من إبراهيم ويوسف وموسى عليهم جميعًا السلام، هو أن المصريين بنوا المقابرَ ورتبوا عقائدهم الدينية والجنائزية ترتيبًا استغرق آلاف السنين، نرى مبدأ الوحدانية ظاهرًا في جوهره، بينما يطغى على مظهره الخارجي مفهوم تعدد المعبودات والآلهة، وهذا النظام لا وجود فيه لأنبياء وديانة واحدة، وسيظل البحث مستمرًا عن شخصية فرعون موسى»[6].

ثانيًا: شعب توراتي أم قبيلة عربية بائدة؟

قدم كمال الصليبي في مؤلفه المعروف التوراة جاءت من جزيرة العرب نظرية أصيلة في هذا الموضوع، ربما تشكل مخرجًا حقيقيًا لهذا المأزق

(5) الكتاب المقدس، «سفر الخروج،» الأصحاح 14، الآيتان 27-28.

(6) زاهي حواس، «فرعون موسى،» الشرق الأوسط، 25/ 1/ 2008.

التاريخي، إذ انطلق من أن الحوادث التاريخية المذكورة في التوراة وقعت في جغرافيا تختلف عن الاعتقاد السائد، بغض النظر عن صحة هذه الحوادث من وجهة نظر تاريخية علمية. فتوصّل إلى نتيجة مفادها أن الجغرافيا التوراتية لم تحدث في أرض فلسطين بل في شبه الجزيرة العربية؛ حيث تتوافق خريطة الجزيرة مع الخريطة التوراتية الحقيقية المبنية على ترجمة أدق للأصل العبري. أنطلق في هذا البحث من عمل الصليبي محاولًا أن أقدم بعض المعطيات التي وقعتُ عليها في التراث العربي، والتي تتوافق مع رؤيته، على الأقل في أن المسرح الجغرافي لحوادث التوراة الأولى هو شبه جزيرة العرب. وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث لم يُبنَ على دراسات جغرافية أو توراتية، بل على ما يقدمه التراث العربي من معطيات تساهم في إثراء البحث في هذا الموضوع. لذلك، تركز البحث على أحد الشعوب التوراتية المهمة، التي يعتبرها الفكر العربي قبيلة عربية بائدة.

من الواضح إذًا أن الرواية التي تصر على اعتبار مصر الفرعونية أرض الخروج لا تعتمد على التحقيق العلمي للتاريخ، ولا على النصوص القرآنية. فبالعودة إلى الآية 137 من سورة الأعراف، نجد الطبري، في تفسيره كلمة «أورثنا»، يبحث عن مخرج لهذه المشكلة، فهو يعرف من دون شك أن بني إسرائيل لم يحكموا مصر، فتراه مقترحًا حلًا سريعًا، ولم يقم - كعادته - بسرد آراء العلماء العديدة في تفسير هذه الكلمة، بل اكتفى بالتالي: «وإنما قال جلّ ثناؤه (وَأَوْرَثْنَا) لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بمهلَك من كان فيها من العمالقة»[7]، وأكمل ساردًا أقوال الرواة عن مكان تلك الأرض التي يقول معظم هؤلاء إنها الشام.

1- عماليق التوراة

لن يُقدِم مؤرخٌ بقامة الطبري على اختلاق رأي ليس له أي أساس من الصحة، وهو المعروف بالموضوعية في سرد الروايات المختلفة التي تصله. فلا شك في

(7) الطبري، تفسير الطبري.

أنه سمع أن بني إسرائيل ملكوا أرضًا سكنها قبلهم قوم يسمَّون العماليق. وربما أخذ ذلك عن الرواية التوراتية أو الإسرائيليات، لكنه ذكرها يتيمة بتردد عند تفسيره هذه الآية، لأن السياق القرآني يوحي بأن بني إسرائيل كانوا ورثوا فرعون وقومه. ومسألة الميراث هذه مذكورة في التوراة أيضًا، إلى جانب ذكر العماليق وليس الفراعنة: «اذكر ما صنع بك عماليق في الطريق، عند خروجكم من مصر، كيف لقيك في الطريق وقطع عنك جميع المتخلفين الذين وراءك، وأنت تعب مرهق، ولم يخف اللهَ. فإذا أراحك الرب إلهُك من جميع أعدائك الذين حواليك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك إياها ميراثًا لترثها، فامحُ ذكر عماليق من تحت السماء. لا تنس»[8].

يتكرر ذكر عماليق في التوراة مرات كثيرة، وفي كل منها عداوة واضحة بينهم وبين بني إسرائيل، «فالحرب قائمة بين الرب وعماليق من جيل إلى جيل»[9]. لكن الرواية الأساس لذكر عماليق هي تلك التي في سفر الخروج بعنوان: «محاربة العماليق»[10]. والجدير بالذكر أن بعض علماء الكتاب المقدس يعتبرون «هذه الرواية القديمة من التأليف اليهودي على الأرجح، وهي عبارة عن تقليد يعود إلى أسباط الجنوب، وترتبط في التأليف برفيديم... في الواقع كانت العمالقة تقيم نحو الشمال في النقب وفي جبل سعير (تك 14/ 7 وعد 13/ 29 و1 اخ 4/ 42ت) وفي هذه الحالة يجب البحث عن (حرمة) (عد 14/ 39-45 وتث 25/ 17-19 و1 مل 15)»[11].

فإذا كان العماليق يسكنون «نحو الشمال في النقب وفي جبل سعير، فكيف تعود هذه الرواية إلى 'أسباط الجنوب'؟ وكيف تكون الحرب مع عماليق في أثناء الخروج وقعت في أقصى الجنوب الغربي لسيناء على البحر الأحمر»[12]،

---

(8) الكتاب المقدس، «سفر تثنية الاشتراع،» الأصحاح 25، الآيات 17-19.

(9) المصدر نفسه، «سفر الخروج،» الأصحاح 17، الآية 16.

(10) المصدر نفسه، «سفر الخروج،» الأصحاح 17، الآيات 8-16.

(11) الكتاب المقدس، ط 6 (بيروت: المكتبة الشرقية، 2000)، ص 182، الحاشية 4.

(12) انظر: مجموعة نخبة من الخبراء والمستشارين والأكاديميين، أطلس الكتاب المقدس وتاريخ المسيحية، تحرير تيم داولي؛ ترجمة سهيل جوعانة (عمّان: أوفير، 2007)، ص 22.

ونحن نجد «عماليق مقيم في أرض النقب»[13]؟ وترد هذه الآية الأخيرة التي تُسكِن عماليق النقب في سياق جغرافي غريب أيضًا في قصة «استطلاع في كنعان»[14].

«فصعدوا واستطلعوا الأرض من برية صين إلى رحوب، عند مدخل حماة. صعدوا من النقب ووصلوا إلى حبرون. وكان هناك أحيمان وشيشاي وتلماي وهم بنو عناق. وكانت حبرون قد بنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين. ثم وصلوا إلى وادي أشكول، وقطعوا هناك غصنًا بعنقود واحد من العنب، وحمله رجلان بقضيب مع شيء من الرمان والتين، فسمي المكان وادي أشكول، بسبب العنقود الذي قطعه هناك بنو إسرائيل»[15].

ثم يرجع أولئك المستكشفون بتقرير عن رحلتهم فيقولون: «دخلنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، فإذا هي بالحقيقة تدر لبنًا حليبًا وعسلًا، وهذا ثمرها (عنقود العنب الذي حمله رجلان في الآية السابقة). غير أن الشعب الساكن فيها قوي، والمدن محصنة عظيمة جدًا، ورأينا هناك بني عناق. عماليق مقيم بأرض النقب، والحثي واليبوسي والأموري مقيمون بالجبل، والكنعاني مقيم عند البحر وعلى ضفة الأردن»[16].

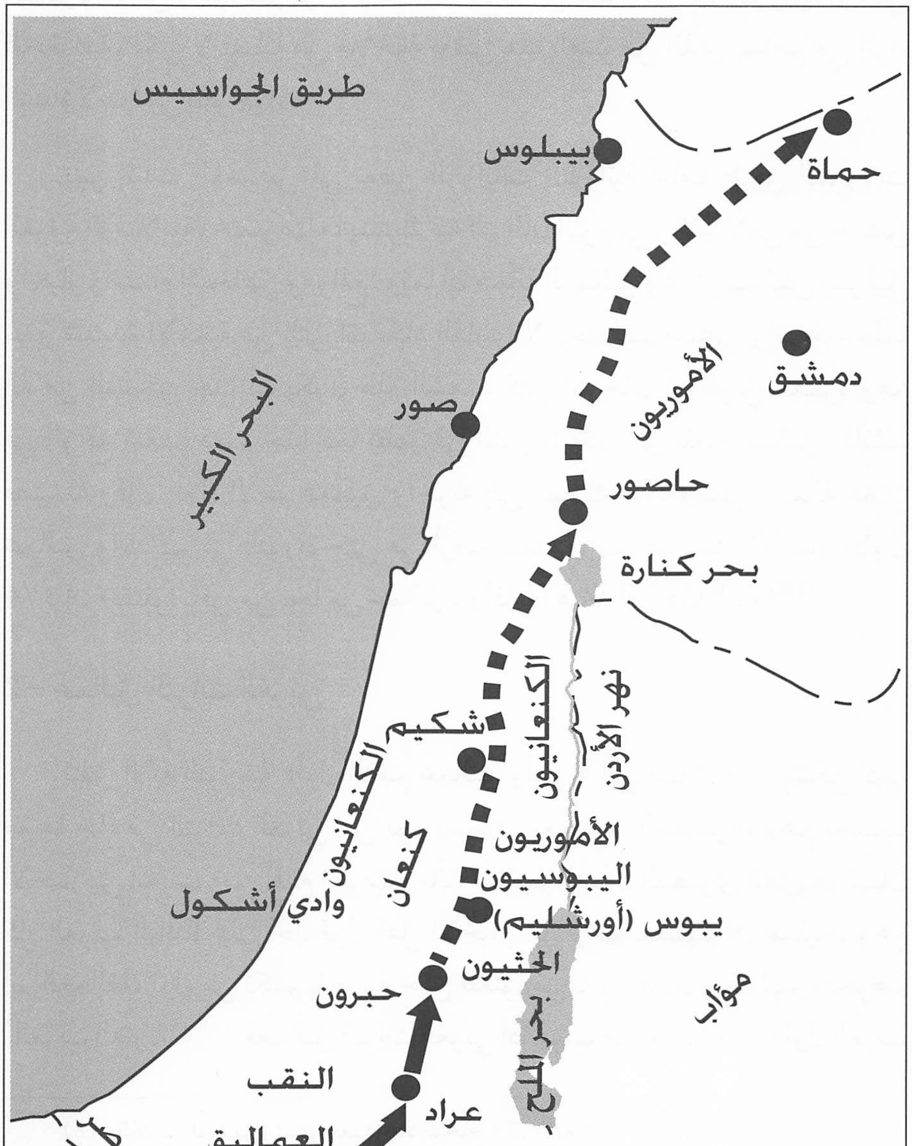
لا بد للمتأمل في الخريطة التي رسمت طريق هؤلاء المستكشفين أن يستغرب أشد الاستغراب من ورود ذكر «حماة» قبل حبرون، علمًا أن موقع حماة، في الماضي كما في عصرنا الحاضر، بعيد كل البعد شمالًا عن النقب وحبرون ووادي أشكول. فهذه المواقع تشكل ما يبدو نهاية المسار بحسب الرواية التوراتية (انظر الخريطة (6-1))[17].

---

(13) الكتاب المقدس، «سفر العدد،» الأصحاح 13، الآية 29.
(14) المصدر نفسه، «سفر العدد،» الأصحاح 13.
(15) المصدر نفسه، «سفر العدد،» الأصحاح 13، الآيات 21-24.
(16) المصدر نفسه، «سفر العدد،» الأصحاح 13، الآيات 27-29.
(17) مجموعة نخبة من الخبراء والمستشارين والأكاديميين، أطلس الكتاب المقدس، ص 22.

الخريطة (6-1)

المسار اليهودي المرسوم في الرواية التوراتية



يكتنف الغموض الموقع الأصلي لشعب عماليق الذي يتكرر ذكره في التوراة، ومواقع أخرى كـ «حماة» وغيرها. وبما أننا نطرح في هذا البحث بعض التساؤلات من وجهة نظر قرآنية إسلامية، فلسنا في صدد الدراسة التوراتية أو حتى الجغرافيّة، لكن لا بد لنا من ملاحقة بعض هذا الغموض الذي يساهم في إثراء التساؤلات التي نطرحها.

ينير إثبات الغموض في بعض الروايات التوراتية أمامنا طريق المرويات العربية الإسلامية، خصوصًا ما يشترك فيه التراثان التوراتي والاسلامي من قصص وأخبار وأسماء أشخاص ومواقع. وبما أن مسألة العماليق وعداوتهم لبني إسرائيل تبدو شديدة الأهمية في التوراة، يكاد القارئ لا يجد لهم مستقرًا واضحًا، علمًا أنه من الممكن جدًا أن يكون هذا الشعب كثير الترحال أو طويل العمر، وهو في الواقع شعب قديم جدًا كما يظهر في التوراة: «ثم رأى بلعام عماليق. فأنشد قصيدته وقال: أول الأمم عماليق وآخرته إلى الهلاك»[18]. وتتكرر مسألة هلاك عماليق وإبادتهم في التوراة حتى في أزمنة متقدمة، كما في سفر الأخبار الأول 4/ 43: «فقتلوا باقي من نجا من عماليق، وأقاموا هناك إلى هذا اليوم»[19].

2- عماليق التراث العربي

تتفق الآية التوراتية «أول الأمم عماليق وآخرته إلى الهلاك»[20] بشكل كبير مع ما جاء في التراث العربي عن قوم يسمون العمالقة «العماليق»، وهم بحسب الإخباريين العرب «من أقدم العرب زمانًا، لسانهم اللسان المضري الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل الأخبار. بل زعم بعضهم أن عمليقًا، وهو أبو العمالقة، أول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل، فكان يقال لهم ولجرهم 'العرب العاربة'»[21]. فعماليق التراث العربي إذًا عرب صرحاء، اعتُبروا أول العرب

(18) الكتاب المقدس، «سفر العدد،» الأصحاح 24، الآية 20.

(19) المصدر نفسه، «سفر الأخبار الأول،» الأصحاح 4، الآية 43.

(20) المصدر نفسه، «سفر العدد،» الأصحاح 24، الآية 20.

(21) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 2 ج (بيروت: دار العلم للملايين، 1968-1972)، ص 132.

وأصحاب اللسان العربي الأول، وهم بالنسبة إلى التاريخ العربي - أو قل العقلية والمخيال العربيين - أول الأمم (العربية) التي بادت، أي هلكت وانتهت.

لا شك إذًا في أن عماليق التوراة يشبهون عمالقة العرب إلى حد بعيد، إن لم يكونوا هم أنفسهم، وهذا أغلب الظن بالطبع، وهو ما سنحاول مناقشته تاليًا. ليس هناك أي ذكر للعماليق في نص القرآن الكريم بهذا الاسم على الإطلاق، لكن الآية الكريمة تقول: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّـهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[22].

ويذكر الطبري في تفسيره بعض الروايات التي تصف حال أولئك القوم الجبارين الذين يقيمون في تلك الأرض المقدسة، التي يبدو أنها الأرض التي ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ نفسها. وإذا أخذنا بحرفية اسم «العماليق» أو «العمالقة»، فإن أول ما يخطر لنا هو أن هذا الشعب تميز بضخامة الجثث، لأن العملاق في اللغة العربية يعني «الطويل والجمع عماليق وعمالقة...»[23]. وبناءً عليه، لا بد من ذكر ما أدرجه الطبري عن حال هؤلاء الجبابرة: «حدثني عبدالكريم بن الهيثم قال، حدثنا إبراهيم بن بشار قال، حدثنا سفيان قال، قال أبو سعيد، قال عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبَّارين. قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريبًا من المدينة وهيأ ريحاء فبعث إليهم اثنى عشر عينًا، من كل سبطٍ منهم عينًا، ليأتوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة، فرأوا أمرًا عظيمًا من هيئتهم وجثثهم وعظمهم، فدخلوا حائطًا لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار وينظر إلى آثارهم، وتتبعهم. فكلما أصابوا أحدًا منهم أخذه فجعله في كمه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه، فقال الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، اذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عايَنُوا من أمرهم»[24].

---

(22) القرآن الكريم، «سورة المائدة،» الآيتان 21-22.

(23) أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، 15 ج (بيروت: دار صادر، 1955)، جذر «عملق».

(24) الطبري، تفسير الطبري.

يبدو جليًا أن هؤلاء القوم الجبارين كانوا عمالقة أو كانوا «العمالقة» أنفسهم، وباعتبارهم كذلك ينسجم السياقان القرآني والتوراتي تمامًا، إلا في مسألة الموقع الجغرافي. ويبدو أيضًا أن كلمة «أريحاء» أضيفت إلى النص في وقت لاحق، لأنها كما يبدو جليًا تشرح ما قبلها، ولو كانت أصيلة لكانت «مدينة أريحاء». لكن كلمة «المدينة» التي سبقتها جاءت معرفة. وقد يكون الطبري هو الذي أدخلها إلى الرواية شارحًا، اعتبارًا منه أن الأرض المقدسة لا شك شامية على أرض فلسطين، لكنه في ذلك لا يتوافق حتى مع الرواية التوراتية. والجدير ذكره في هذا السياق أن ابن منظور يذكر في شرحه للجذر «عملق» أن «العمالقة من عادٍ. وهم بنو عملاق. قال الأزهري: عملاق أبو العمالقة وهم الجبابرة الذين كانوا بالشأم على عهد موسى عليه السلام». وبغض النظر عن مكان إقامتهم الملتبس، إلا أن «العمالقة» هم «الجبابرة» كما رأينا. وإذا أردنا أن نتتبع رأي ابن منظور في أن العمالقة من عاد، نرجع إلى بعض آيات القرآن التي تصف قوم عاد ومنها: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّـهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[25]، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[26].

يتفق الوصف القرآني لعاد، ظاهريًا على الأقل، مع وصف العمالقة بأنهم أقوياء وجبابرة، ومن الطريف جدًا، بحسب ابن منظور في لسان العرب أيضًا، أن معنى «العملق الجور والظلم» وهذه اللفتة، في الحقيقة، تساهم بشكل كبير في فهم القصد من وراء التسمية الأولى. وبعد ذلك، يتفنن الخيال الشعبي على مر العصور في تصوير ما تميل إليه النفس البشرية من صور خارقة تفوق الطبيعة.

3- أين يسكن العماليق

ذكر بعض أهل الأخبار أن «العماليق» انتشروا في البلاد، فسكنوا مكة والمدينة في الحجاز، وعتوا عتوًا كبيرًا»[27]، أي ظلموا وتجبروا. ويذكر الأزرقي

(25) القرآن الكريم، «سورة فصلت،» الآية 15.

(26) المصدر نفسه، «سورة الفجر،» الآيات 6-8.

(27) علي، ص 704.

في كتابه أخبار مكة، في معرض حديثه عن بناء الكعبة وتاريخ الحجر الأسود: «فانهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم فبنته قريش»[28]، وفي ذلك إشارة إلى وجود العماليق في مكة المكرمة، وإلى ارتباطهم بالكعبة وحجرها الأسود.

وبمناسبة ذكر مكة، لا بد من الإشارة إلى بعض المرويات التي وجدتها في كتاب الأزرقي عن تاريخ مكة، والتي تحمل بعض الإشارات التي تسهم في إثراء التساؤلات التي نطرحها في هذا البحث. يروي الأزرقي عن سلسلة من الرواة[29] فيقول: «إن كانت الأَمة من بني اسرائيل لتقدم مكة، فإذا بلغت ذا طوى، خلعت نعالها تعظيمًا للحرم». وبعد البحث عن ذي طوى هذا، وجدت ابن بطوطة يقول إنه «وادٍ»[30] قبل مكة، و«إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل بذي طوى حين يعتمر، وفي حجته حين حج تحت سَمُرَة في موضع المسجد»[31]، بل «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل بذي طوى فيبيت به حتى يصلي الصبح حين يقدم مكة»[32]. فما علاقة ذي طوى هذا بالآية الكريمة: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[33]. ويبدو من المرويات السابقة أن ذي طوى وادٍ وأن هذا الوادي كان يتمتع بقدسية ما بالنسبة إلى الرسول، وإلى بني إسرائيل أيضًا. وتتمثل هذه القدسية بخلع النعال، وفوق ذلك كله اسمه طوى. فهل هذا هو الوادي الذي أوحي إلى موسى فيه بحسب القرآن؟

أما مسكن العماليق، فقد ذكر بعض أهل الأخبار إضافة إلى سكناهم مكة «أن أقدم من سكن يثرب في سالف الزمان قوم يقال لهم صعل وفالج، فغزاهم النبي داود وأخذ منهم أسرى، وهلك أكثرهم، وقبورهم بناحية الجرف. وسكنها

(28) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ص 17.

(29) وإحدى هذه الروايات تنتهي إلى عبد الله بن عمرو.

(30) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (بيروت: دار بيروت، 1960)، ص 64.

(31) الأزرقي، ص 229.

(32) المصدر نفسه.

(33) القرآن الكريم، «سورة طه،» الآية 12.

العماليق، فأرسل عليهم النبي موسى جيشًا انتصر عليهم، وعلى من كان ساكنًا منهم بتيماء، فقتلوهم، وكان ذلك في عهد ملكهم الأرقم بن أبي الأرقم. ولم يترك الإسرائيليون منهم أحدًا، وسكن اليهود في مواطنهم. ونزل عليهم بعض قبائل العرب، فكانوا معهم واتخذوا الأموال والآطام والمنازل»[34].

إذا قارنا هذه الرواية العجيبة مع الآية 137 من سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، يتضح لنا السبب وراء الرأي الذي قدمه الطبري مترددًا، في أن من سكن الأرض التي باركنا فيها قبل بني إسرائيل هم العمالقة، وقد يكون سبب تردده أن الأرض التي سكنها العمالقة هي يثرب[35]. فكيف يستوي ذلك مع الرواية الإسرائيلية السائدة؟

4- العمالقة وفرعون

ذكرنا آنفًا أن لا ذكر للعمالقة في القرآن على هذا النحو إطلاقًا، بل ذكرتهم التفاسير وكتب التاريخ في مواقع كثيرة. وبما أننا بدأنا مع آية قرآنية تذكر بني إسرائيل ودخولهم الأرض المباركة بعد دمار فرعون وقومه، وبعد أن وجدنا أن العماليق سكنوا جزيرة العرب وحاربوا بني إسرائيل فيها أيضًا، فلا بد لنا من العودة إلى مسألة فرعون القرآنية، أو على الأقل العربية، للبحث عن رؤية جديدة تناسب الاقتراح السابق عن أرض العماليق.

الحقيقة أن فرعون في القرآن شخص واحد، وهو فرعون موسى، لا يرد في القرآن أي صيغة جمع لفرعون (فراعنة)، ولا يوجد شخص آخر في القرآن غير فرعون موسى الذي يطلق عليه هذا الاسم أو هذا اللقب. فبخلاف التوراة، لا يرد أي ذكر لفرعون في قصة إبراهيم أو يعقوب، أو حتى يوسف؛ وإنما يطلق القرآن

(34) علي، ص 748.

(35) ربما يكون الطبري متأثرًا بالرواية السائدة عن بني إسرائيل، لذلك تراه مترددًا في ذكر يثرب سكنًا للعمالقة.

لقب الملك على الحاكم في زمن يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[36].

وفي سرده قصة يوسف، يقول المؤرخ ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**: «... والملك يومئذ الريّان بن الوليد رجل من العمالقة قيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف ومات ويوسف حي، وملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف فلم يؤمن. واسم زوجة ملك يوسف راعيل». بينما يقول الطبري: «كان يومئذ الملك بمصر وفرعونها (وهذه إضافة دخيلة) الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلداس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح». لم يكن الملك زمن يوسف فرعونًا بحسب القرآن، والأكثر من ذلك أنه يحمل اسمًا عربيًا من المستبعد جدًا أن يحمله ملك من ملوك وادي النيل، والأكثر إثارة للاهتمام أنه كان من العمالقة، وجده عملاق هو والملك الذي جاء من بعده؛ فهما بحسب أهل الأخبار من العرب العاربة، أو على الأقل من سلالتهم.

أما فرعون موسى الذي يتكرر ذكره في القرآن كثيرًا، فيورد السيوطي في **الاتقان في علوم القرآن** اسمه على النحو الآتي: «الوليد بن مصعب، وكنيته أبو العباس وقيل أبو الوليد. وقيل أبو مرّة. وقيل إن فرعون لقب لكل من ملك مصر. أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان فرعون فارسيًا من أهل أصطخر». والوليد بن مصعب اسم عربي لا يستوي مع الأسماء المتعارف عليها لملوك وادي النيل القدماء كرمسيس ورع ومرنبتاح وغيرها، كما أن الكنى المستخدمة عربية، لا تمت بأي صلة لغير العرب.

قد يقول قائل إن مصر ذُكرت في القرآن صراحة، وهذا لا يدع مجالًا للشك في أن مسرح تلك القصص النبوية هو مصر التي نعرفها اليوم. فإذا طرحنا العديد من النظريات التي قد لا يأخذها البعض على محمل الجد، وتفيد بأن مصر اليوم لم

---

(36) القرآن الكريم، «سورة يوسف،» الآية 43.

تكن مصر الماضي، وإذا غضضنا الطرف عن حقيقة أن كلمة مصر في اللغة العربية تعني بلد أو مدينة، واعتمدنا فقط على النص القرآني نفسه في تفسير كلمة مصر، نجد من غير المعقول أن تعني مصر وادي النيل. فالقرآن الكريم يخاطب بني إسرائيل في الآية 61 من سورة البقرة: (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ)[37]. فلو كانت مصر في القرآن هي مصر النيل نفسها، التي خرج منها بنو إسرائيل عابرين البحر هربًا من فرعون، لكان معنى هذه الآية الرجوع إليها بعد كل هذه المشقة، علمًا أن السياق التاريخي لهذه الآية الكريمة هو زمن التيه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أسماء واردة في التاريخ العربي لبعض شخصيات العهد القديم، فزوجة فرعون التي يتحدث عنها القرآن ويصفها بأنها آمنت بالتوحيد وتبرأت من فرعون وعمله في ﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[38]، كانت تُدعى، بحسب المرويات العربية، آسية بنت مزاحم. وفي البحث عن أصل اسم «مزاحم»، يوضح لسان العرب أن الزحم ومزاحم وزُحم من أسماء مكة، ونسبها الكامل بحسب ابن الأثير: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد «فرعون يوسف الأول».

وكذلك راحيل اسم زوجة يعقوب، ترجمته بالعربية رخل، حيث أن الحرف العبري في هذه الحالة هو خ وليس ح. وكلمة الرحل تعني «الأنثى من أولاد الضأن، والذكر حمل»[39]. ما زالت هذه الكلمة مستخدمة في اللغة الدارجة حتى الآن، خصوصًا في جزيرة العرب (رخلة)، «والرحيل منزلة بين مكة والبصرة»[40]. ومن الطريف جدًا أنه كان ثمة قبيلة عربية تسمى «بنو راحل»، وهي من العماليق[41].

(37) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية 61.
(38) المصدر نفسه، «سورة التحريم،» الآية 11.
(39) ابن منظور، «جذر رخل».
(40) المصدر نفسه.
(41) انظر: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، وعمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، 3 ج (دمشق: المطبعة الهاشمية، 1368هـ/ 1949م).

عند قراءة سورة يوسف القرآنية، لا بد من الإشارة إلى ملاحظة بسيطة تقود إلى تساؤل بديهي عن المسافة التي كان الأسباط، أخوة يوسف، يقطعونها ذهابًا وإيابًا بين والدهم يعقوب وأخيهم يوسف: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[42]، وهم بكل بساطة يحاولون أن يحصلوا على بعض الطعام من الحكومة التي تبدو مسؤولة عن إطعامهم، بينما كان يوسف أمين خزائن هذه الحكومة، فردهم يوسف طالبًا منهم أن يأتوا بأخ لهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[43]. تكررت هذه الرحلة مرتين، وقد رافق النبي يعقوب أبناءه في الرحلة الأخيرة وهو مسن. وإذا قرأنا السورة في ضوء الرواية الإسرائيلية المعتمدة، فإنها بالطبع تعتبر أن الرحلة المتكررة حدثت بين مصر وادي النيل وكنعان (فلسطين اليوم)، وهي مسافة تثير التساؤل... بل العجب.

5- عماليق التوراة هم عماليق جزيرة العرب

نخلُص مما سبق إلى أن أول أمم التوراة عماليق، وأول قبائل العرب عماليق، والاثنان جبابرة عتاة، وكانت نهايتهما إلى الهلاك. عماليق التوراة قاتلوا العبرانيين اليهود في مكان لم يثبت موقعه بعد الخروج، وعماليق العرب قاتلهم جيش لموسى النبي في يثرب.

تشابهت أخبار عماليق التوراة وأخبار عماليق العرب، إلا في المواقع الجغرافية، فتبدو مضطربة في التوراة، بينما تضطرب الرواية العربية تجنبًا لمخالفة رواية التوراة. ويتضح أن عماليقهم شعب واحد في تراثين، ربما انحدرا من مصدر واحد. وفي حين أن هويتهم في التوراة مرتبكة بعض الشيء، فإنها ثابتة في التراث العربي؛ فالعرب، وهم أهل الفخر والاعتزاز بالأصل والنسب، يدّعون أن أصل العرب، وأول من تكلم العربية، عماليق.

وفي حين يغيب أثر اليهود في وادي النيل غيابًا شبه تام، وتضيع هوية فرعون

(42) القرآن الكريم، «سورة يوسف،» الآية 58.

(43) المصدر نفسه، «سورة يوسف،» الآية 63.

موسى في المصادر التاريخية، تظهر أسماء عربية صريحة لفرعون موسى والملوك الذين عاصروا أنبياء القرآن الذين تشترك التوراة مع القرآن في رواية قصصهم، إلا أن القرآن لا يطلق على أولئك الملوك لقب الفراعنة، إضافة إلى أن علاقة أولئك الملوك بالعماليق ذريةً، بحسب الإخباريين العرب. فإذا كان عماليق التوراة هم عماليق العرب، فإن مسرح الصراع اليهودي - العماليقي هو شبه الجزيرة العربية، لا غيرها.

فهرس عام